

الطفولة وعشرات الشباب

بقلم

المرحوم الأستاذ هاجر محمد الملبجي

تطلب من الأمير الملبجي بشارع حلوان رقم ٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين)
 وبعد : فقد رغب إلى الأستاذ الأمير حامد المليجي في أن أقرأ
 كتاب والده المرحوم الأستاذ حامد محمد المليجي ، الطفولة وعثرات
 الشباب ، الذي أجهد نفسه في وضعه كما قال رحمه الله ، في حلة
 روائيه ، حتى يستوعب القارىء ما فيه ، مسحورا بعدوبة روايته
 البريئة من كل شيء ، ما خلا الحث على الفضيلة والأخذ بمعالمها ،
 فقرأت كتاب الأب وأشرت على الابن في أن يحذف من
 الطبعة الأولى المقدمات الطويلة للكتاب والتعليقات الثمينة فيه
 رغبة مني في أن يسرع في أن يتمتع القراء بلب كتاب أبيه الفقيد
 على أن يثبتها في الطبعات التالية ، وكنت في اقتراحى هذا حريصا
 على أن أتبع الفرصة بسرعة اظهار الكتاب لأن تقرأه الشركات
 السينمائية ، لعل حب الخدمة الوطنية يدفع احداها على اخراج هذه
 الرواية التهذيبية التي كان يرجو مؤلفها أن تطهر بها النفوس

والقلوب ، وتسمو بالشباب الى عالم الفضيلة ، وتخرج بهم عما ألفوه
من الأعمال الدنسة المخجلة ،

هذا ويقتضى واجب الأمانة أن أذكر أنى رأيت تحقيقا للغرض
الذى ذكرته ، حذف الفصل السادس وتلخيص بعض تعليقات
المؤلف على حوادث روايته ، والله أسأل أن ينفع القراء بنفثات
يراعه وأن يتم على الأديب الأمير المليجي نعمة وفائه لأبيه
فيتابع اخراج كتبه ، لينفع الناس بها ولتكون له نعم الذكرى ،
والسلام ؟

محمود علي فراعنة

منشئة البكرى في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٠

الفصل الأول

نتيجة طبيعية للتربية الأولية

تعمس أضياء الآسى وأسقمه البؤس ، لم يبلغ الحاققة الثانية من عمره ، مات جده فضرب حظه بسهم فاجع في الهموم والأحزان عاش بين غصص الزمان وتباريح المحن ، إن أفلح يوما في دفع خطب ، كان نصيبه في غده أعظم كرب ، هو هدف الدهر الذي يحسن الرماية ، كلما أذنى منها نقذ في عميق أحشائه ، بيد أنه غالق بالحياة ، كريم العنصر ، يكدح في محيط الشقاء ويكافح بقلب شجاع ونفس لا يذلها الضيم ، وبينما هو رمز البؤس وعلم التعاسة تراه عنوان الآباء والشرف ولواء البسالة والمروءة ، لم يكن لو والده حظ من صفاته الشريفة وأخلاقه الكريمة ، فقد قضى الوالد حياته في دور الدعارة أكثر مما قضى في بيت أبيه الصالح الذي عاش ولم يحف له دمع ولم تسعد له حال لسوء خلق والده ، ومات وهو كليل القلب ، أليم الجوانح ، مقروح الأضراس ، لأن ولده الوحيد كان حتى لحظات احتضاره منغمسا في شؤون الدنيا والآخرة

منه وينال منها !

على أن الرحمة الالهية قضت أن تتبع كل ضراء بسراء وكل بأساء
برخاء ، فكانت نظرات الجد إلى حفيده « صابر » الذي هجره أبوه
مذنبه له ، ضالأحزان مخففة شيء من الآلام ، ولكنها طالما كانت
بمثابة الكبريت ، في التهابه بين الهشيم والخطب ، فجددت ذكريات ماضى
الوالد مع الولد ، وأذكت نيران الحزن والغم بين الضلوع :

مات هذا الجد . بعد أن بلغ الستين من عمره ، وما كاد يعلم والد
صابر بخبر وفاة أبيه ، حتى أسرع إلى المنزل الذي فضل المقام في بيوت
الدعارة على الإقامة بين جدرانها ، ولم تكن إلا ساعات قليلة حتى
وورى الشيخ محمد التراب فلم يبكه غير الحفيد وأمه وجدته ، أما
« خليل » ولد هذا الشيخ ووالد صابر ، فقد نزلت من عينيه دموع
غير حارة جفها مجرد فسكرة اعتورت مخيلته وهى أن المال آل
أمره إليه ، وكانت أول كلمة نطق بها في غرفة أبيه التى لم يكن
قد تجدد بعد هواؤها الذى تنفسه الراحل « ماذا ترك والدى ؟ »
ثم أخذ يحذرو وينذرو ويوعدو ويهدد كل من يخفى عنه خافية لئلا
حقوق الوالدين ، فلم يحفظ لأبيها حرمة . وجهل . حقوق الابن

والزوجة فلم يبق لهما حتى الحثالة ، وجرد المنزل من كل شيء خف
أو ثقل حمله ، ثم ولى إلى حيث تقيم عشيقته وأترابها تاركا صابرا
وأمه وجدته في أحضان الرحمة الالهية التي تغدق على البائسين
والمتكورين !

ولقد كان شغف الوالدين بولدهما أعظم أسباب اتلافه وافساده
عاش في أحضانها طفلا فصيا ، كما تعيش العوبة الأطفال في يد
أحدهم ! كانت الأم تساعد ولدها على هجريات العلم والانغماس
في اتيان كل منكر ، ثم اختلط بسفلة الشبان فاقتادوه بسهولة إلى
منازل الخلاعة ومواطن الدعارة ، فاختل توازنه الانساني وأصبح
خايل ذلك الشاب الذي لا يباهيه عن الله أو العيب بالآداب شيء !
عكف و خايل ، أولا على سرقة ما خف حمله من متاع البيت
وبيعه بأثمان بخسة ، ثم تدرج في ذلك إلى استلاب حلي والدته ، وكان
الحزن تارة يحيش في صدر تلك الوالدة فيثور غضبه على و خايل ،
وينقلب هباء البيت أو سكونه إلى نكد واضطراب ، كما كانت في
كثير من الأوقات تخفى عن زوجها ما افتقدته من أثاث المنزل

وآنيته أو حلي لها !

على أن ذلك كان من الأسباب السيئة التي بعثت في نفس
« خليل » الارتياح إلى عمله الذي يحصل منه على مطلوبه من المال
ليكي يقضى لباتته مع عشيقاته ، وما زال يقارع والديه ويقارعه حتى
قطع عندهما كل أمل في تقويم حاله وانهاضه من عثراته وسقطاته
ولا سيما بعد أن سولت له شياطين الأناس وسلطان شهوته وهواه
أن يفتك بوالده ليخلص له الجو ويرتفع في بحبوحة ماله ، ولكن
طاش سهمه فاضطر الوالدان إلى تمزيق أحشائها بيديها ، فطرداه !
وكان الوالدان — وليكن بعد فوات الوقت — يعملان كل
شيء في سبيل تقويم اعوجاج « خليل » وليكنهما نسيا أن الإنسان
كالعرد لا خضر تستطيع تقويمه أو تقريسه أو وضعه على أي شكل
أو صورة شئت له ما دام في عهد الطفولة واليفوعة وما بينهما ،
وليكن إذا ما مر على الإنسان هذا العمر ، فكل جهد مبذول ضائع
وكل عمل في سبيل تقويمه باطل !

ولقد طرق الوالدان كل باب لهذا السبيل ، وكان آخر سهم
رمياه هو الأقدام على تزويجه من ابنة عمه « صفية » فعاش العروسان

بضعة أيام في شيء أشبه بالسرور ، ولكن سرعان ما انكص
خايل على عقبيه ، يطرق أبواب من تعود مجالستهن ومقارعتهن
ومنادمتهن ، وهجر هذه العروس البائسة بعد بضع ليالٍ لزفافها ، لا
لأنها لم تكن ذات جمال فقد كانت فيه آية ، ولا لأنها لم تكن ذات
خاق وأدب فقد أدركت منهما كل غاية ، ولكن لأن الفسق والفجور
قد حباه في ارتكاب كل معصية وانتهاك كل حرمة !

مسكينة تلك اليتيمة البائسة « صفية » ، إنها قطعت ثلاث سنوات
على اتصال بابن عمها الفاجر أو زوجها الناصر ، لقد سهرت أكثر
ليالي هذه السنين الثلاث انتظاراً لعودته ، ولكنها مع هذا كانت
راضية بنصيبها ، بيد أنها طالما أنت وتوجعت كلما نالها منه أذى
أو سوء ، وإن دمعاتها الحارة التي كانت تحاول إخفاءها عن أعين
زوجها ثم عمها وزوجته ، كانت تتم عن مبلغ آلامها من الحيلة
لأسيما بعد أن رزقت من خايل بطفل جميل الصورة تشف مقاطع
وجهه القمري عن الخير والفضيلة !

على أن صرخات الطفل صابر ، الندية وأنغامه الشجية ونجواه
الحلوة ، كانت أكبر تسليّة للحزينة التعسة ، طالما أنستها أذى

زوجها لها وسلبها حليها واغفاله لشأنها ، وكثيرا ما أهتمها عن
التفكير الطويل الذي كانت تقطع فيه الساعات ، وربما بقيت
نهارها وليلها كئيبية تبكي حظها وتندب ساعة قضى الموت فيها على
أيها وأما !

والآن وقد رفع الغطاء عن أعين الوالدين وعن قلب هذه
الزوجة ، وعلموا أن كل تجاربهم لاصلاح و خليل ، قد فشلت ،
فعلمهم أن يصونوا حياتهم المهددة بالخطر ممن لم يضنوا عليه بكل
نفيس وغال !

لقد طرد خليل ، فهو بعد هذا اليوم اللص الطريد وليس الابن
البار الذي لو كان قد أدب وعلم وثقف عقله ، لكان للأهلين ثروة
لا تزول حتى بزواله ، وكذلك كان لوطنه ، ولكن سبق السيف
العذل ، وإذا بلغ السيل الزبى وتخطى فلا أمل في الحلم ولا رجاء
في العفو ، وإنه لمن الحق والجنون بل من الجبن والخسة ألا يجعل
المرء لحلمه مدا ولعفوه أمدا ، وباطل ما يزعم الناس أن لبن المريكة
المفرط والهواذة يؤديان للنجاح دائما أبدا !

الفصل الثاني

صابر في طفولته

صابر هو الطفل الذي قذف به القدر من سماك العالم المجهول إلى عالم الوجود الأدنى الذي نعيش فيه . لقد كان ثمرة تجربة الوالدين لإصلاح حال ولدهما ، فما كاد يشهد عالمنا حتى أخذ الدهر يتنكر له ، فإذا به تعس ليس له والد يحنو عليه ويضمه إلى صدره الرؤوم فيتسرب إلى فؤاده وقلبه شعاع من السعادة الدنيوية ، فقد افتقد صابر والده وهو رضيع فلم يسعد بقبلات الوالد الحارة التي كثيرا ما تقطف من وجنات المربود الطاهرة .

إنه الآن يتدحرج على الأرض تتبعه نظرات والدته البائسة ، ماله يريد أن ينهض فيحوجه الدضد والمسند ! إنه يبحث عما يقوم قامته ويعدل قوامه ، يرى أهل البيت بين روحة وجيئة ، منتصبين على أقدامهم ، فيتوق إلى الوقوف أو النموض بنفسه مقلدا مثلا ، ولكنه سرعان ما تخور عزيمته ويسقط على أرض الفناء الذي يتدحرج فيه ، بيد أنه يكافح ويحاول للهوض ، وأمه تتجاهل أمره

ورغبته لأنها تريد أن تنشئه على الفطرة أو قل إنها ترغب في تعويده
على الاستقلال بنفسه والاعتماد عليها في كل أدوار حياته وما ينشأ
له في خلالها من المطامح والرغبات إنه يزحف الآن نحو اليمين
بجد وقوة لقد قطع بضعة أمتار أين وصل ؟ إلى الجدار الذي
نصب عليه حائط البيت الذي هو نزل آلام أمه وجدده وجدته
والذي قد يكون مبعث آلامه منذ ولد إلى يوم يموت إنه لفرح
مغتبط بفوزه في جهاده لقد تفتحت أسارير وجهه الجميل ، وما
أجمل الوصول إلى الغاية وما أعذب ساعة الظفر التي تنسى آلام
الجهاد في سبيله

نخذ صابر الجدار فكان له سنداً طيباً وتكأة قوية تساعد على
النهوض والسير إلى أية جهة شاء .. ها هو يخطو بثبات وتؤدة
فرحاً محبوراً .. ولكن ماله قد وقف بخته .. لقد قطب وجهه
وعبست ظاهرتة .. لقد صرخ صرخة مزعجة مؤلمة .. سقط على
الأرض سقطة تكاد تنك من أعضائه .. اشتد بكاءه وأمه لم
تتحرك من مكانها متلمية عنه بما كان لديها من مشاغل البيت ، ولكن
بعد قليل من الزمن أقبلت صفية ، على ولدها هاشة باشة ، وهناك

شاهدت د صابرا، رافعا يصره تارة إلى سقف الغرفة وأخرى إليها كأنه يسألها كيف الصعود إلى العلا؟ وما أذكى هذه الوالدة فقد عرفت كيف نجيب على مطلب و لديها الطموح ! ها هو السلم يا ولدى ، درجة بعد درجة تعلموها حتى تصل إلى ذلك الذى رغبت فيه ، وهكذا تكون الحياة وكذلك يكون الرقى والعلا فى أدوارها ! أما العجوز د فاطمة ، جدة د صابر ، فقد تسرب إلى قلبها وهى جالسة على قرب من د صفية ، ورلدها أنه استكشف بعينه البراقنين الذكيتين صفحات مستقبله المخيف الفاجع ، وقد يكون ما ذهب إليه فكرها أن الطفل رأى صورة مستقبله الحالك فى سنى عمره ، رآه شبحا مخيفا فظيعا فارتعدت فرائصه واضطربت جوانحه وسامت حاله وسقط كما يسقط الجندي فى حومة الوغى .. ولاكن عند ما يعالجه الفرع والخوف !

° ° °

فى هذا اليوم طرد خليل لتأمره على اغتيال والده ، ومنذ تلك الساعة الرهيبة لم تتمتع عينا د صابر ، برؤية وجه أبيه ، فلم يعيش يتيما فحسب ، بل كان أشد يتما وأكثر حزنا من مات والده ، إذ

منذا الذى ينسى تلك الأويقات اللذيذة التى يقضيها الوالد مداعبا
لولده ؟ انظر كيف تشعر بسعادة وغبطة عند ما تلتف ذراعا ولدك
الصغير ان الرشيقتان حول عنقك ، وتصور مبلغ تلذذك من تلك
القبلة العذبة التى يضعها فمه الطاهر على خدك المعشوشب أو جبينك
المجعد ، ثم تخيل كيف يمدف بجسمه الأنيق وحمله الخفيف
لاحتضانك ومعانقتك أو التربع على أحد ساقيك ، وتذكر كيف
يكون وقع رنين صوته الغريد وشجوه اللذيد المطرب فى أذنيك ..
إنه يناديك أبى .. أبى .. فهلا ترهف اصصوته سمعك وتفتح له
قلبك ؟

إنه الملك والسلطان هذا الوالد الذى يشهد ذلك بعينى رأسه ،
وإنه يشعر بالسعادة والرفاهية والهناء والخير والنبيل كما أما
الطفل الذى يجلب الهناء للقلوب والشعور بالعظمة والعزة ، فان
حرم النطاع لوالده كان تفسا كسير القاب مكسور الجناح فى كل
أيام طفولته ، ثم إذا تخطاها كان شاعرا دائما أبدا بكآبة تختمر
فى قلبه ، لهذا بقى أثر السكآبة باقيا على وجه صابر لا يفارقه ، وهو
كلما فطن إلى الحياة واتسعت مداركه عظم همه وجاشت فى قلبه

ورأسه أفكار هائلة ينفطر لها الفؤاد !

* * *

إنه الآن تلميذ في مدرسة ابتدائية يتغذى بلبان العلوم الأولية
أمام معلمه فقد قرأ الكثيرون منهم على وجهه بشائر النجاح والفلاح
ولكنهم كم لاحظوا كتابة بادية على محياه الجميل قل أن تبرحها !
ولعل شدة عطف المعلمين عليه وكآبته الدائمة تقريبا كانت سببا
في عدم ائتلافه كثيرا برفقائه في الدرس ، الذين تعودوا
ارتياح بعض الجهات للرياضة والنزهة ، غير أنهم يفضلون دائما
الذهاب إلى الأماكن المستورة في داخل حديقة المدرسة للاجتماع
هنالك واللعب بما يسمونه «الظهر والطلع والطره والياظ» وأمثال
هذه الألعاب التي تدفع الأطفال إلى المقامرة !

انظر كيف يعالِب إلى الصبي أن يضع نواة المشمش مثلا على
أمل أن يكسب أضعافها حين يجيء «الظهر» ، بعد رميه على الأرض
بلون أزرق أو أحمر ، وانظر أيضا كيف يطلب إلى الطفل أن يضع
اصبع حلوى على أمل أن يكسب ضعفه إذا جاء «الطلع أو الكعب» ،
منتصبا وظهر سطحه الحشن بعد رميه على الأرض ، وتمعن فيما

يطلب إلى الغلام أن يعطى « ملبسة » ليكسب خمس « ملبسات » ، إذا هو دل على أى يد كان قد وضع فيها ملاعبه أو مراهنه قطعة صغيرة من القش بعد اخفائها ، فإذا لم ينجح فى أى رهان خسر نواته أو ضرب على يده بضع ضربات « بالطرة » ، يقرر عددها أحد اللاعبين والحكم ، وإن لم تكن بالطرة فبايد بعد قبضها تكون أشد تأثرا أو ألما فى الظهر أو أى ناحية من الجسم ، وقد تجر هذه المراهقات إلى اتيان أعمال منكرة !

لقد ذهب « صابر » مع هؤلاء الصبية مرة وشاهد هذه اللعبات فلم ترق فى نظره ، ولما عاد إلى أمه التى عودته ميكاشفتها بكل شئ رآه وعمله فى يومه ، أخذت تبين له بأسلوب عذب مبالغ الأضرار التى تلحقها وتلحقها إذا هو سائر هذه الفشة من رفاق الدرس ، فكانت تضع نصائحها فى قالب روائى وقصصى ، فيستوعبها « صابر » لعذوبتها وتدفعه رقة شعوره إلى استحسانها والأخذ بما فيها ، لهذا لم يعد بعد تلك المرة يرافق أحدا من هؤلاء الرفقاء .

على أنه لم يكن جافا فى الطبع كما ظن وانهمه البعض ، كما لم يكن متكبرا ولا معجبا بنفسه أو ممتاثا بالخيلاء ، بل كان لطيفا يميل إلى

المحادثة في أوقات فراغه إذا لم يشعر بتلك الحالة الخاصة التي تعتوره وهي ضيق الصدر وارتباك الذهن وانشغاله بهذه الغيوم الفكرية الكثيفة ، فكان إذا ذكر والده اكتب وناجزه الفكر القاتل فلا تهدأ نائرة نفسه حتى يقطع وقتا طويلا في عزلة تامة تتحرك شجرته خلالها ، فاذا ما اعترضه مخلوق تزايد ألمه وعظم ضيق صدره بيد أن هذه الحالة النادرة الوجود بين الصبية قد جعلت تلاميذ المدرسة يحزمون بكبريائه عليهم . . .

شكا إلى أمه يوم ما صي من رفاقه خشونة ملهسه وشدة استسلامه للحزن الذي يظهر واضحا على وجهه ، راجيا أن تنصحه باخضاعه رفيقا وصديقا فانه يشعر بالميل له ، فلما جاءه صابر ، وسألته لم لا يبدش في وجوه اخوانه ويشترك معهم في مسراتهم التي لا تمس الآداب والأخلاق ؟ رفع صابر ، رأسه إلى أمه العزيزة وأخذ يقول : أماه ! ليس بين رفاقي صاحب صادق وفي ، ولكني سأحاول أن أختبر الناس على محك الحوادث ، فاذا ما وجدته كالذهب النقي بعد امتحانه صاحبا نقيا تتجمع في قلبه آيات الفضيلة والشجاعة والمروءة والصدق والوفاء ، اتخذته أخا شقيقا ، بل صديقا ورفيقا

فقد يفضل العديق الشقيق !

وقد أعجبت «صفية» بفطنة ولدها وفرحت بمتانة خلقه وتربيته وأدركت أن نصائحها التي كانت تسوقها إليه كل ليلة قبل نومه ، في قالب حكايات شبيهة بروايات خيالية خلقية ، قد أوجدت في رأسه شعلة الذكاء ، وفي نفسه علو الهمة والآباء ، وفي قلبه متين الايمان بأحكام القضاء الالهي ، فاقتربت منه وضمته إلى صدرها مقبلة ومعانقة !

كذلك كان « الشيخ محمد » يصطحب حفيده « صابرا » ، في كثير من الأوقات إلى بعض الجهات الخلوية البعيدة والحدائق العامة وبيوت الآثار القديمة والمتاحف العظيمة ، وكثيرا ما كان الجد يسمح لصابر أن يدعو بعض رفاقه في المدرسة للخروج معها إلى هذه الأماكن وفي السياحات القصيرة في قوارب النزهات !
وكان صابر كلما تقدم في الانتقال من فرقة إلى فرقة بمدرسته اتسعت مداركه وقويت فطنته ، وما هي الا سنوات ثلاث حتى نجح في نيل شهادة الدراسة الابتدائية نجاحا باهرا ، فأدخله جده في القسم الثانوي ، فكان بين رفاقه عنوان الاجتهاد ومزار الذكاء

ولكنه كان يخشى الاندماج فيهم فيخسر ما اكتسبه بالتطبع بطباعهم !
شكا « صابر » إلى جده يوم ما شعوره بخشونة في معاملة رفقائه
له ومقابلتهم إياه بشديد التأفف والاستهزاء والبغض ، فلما سمع
الجد منه ذلك وفهم الأسباب التي جعلته لا يتصل بهؤلاء ، اقترح
عليه ألا يباعدهم أو يخاصمهم ، وإنما يمشيهم إلى حد لا تنجم عنه
أية خارمة للخاق ، على أن « صابر » لم يكن ذلك الغلام الأبله أو
الغبي الذي يغيب عنه مثل هذا الاقتراح ، فقد عالج رفقائه به فلم
يفلح لأنهم كانوا يعرفون أنه « صابر » ينكر عليهم سبل اعوجاجهم
بدليل أنه لا يشاركم في اقتراح سيئاتهم التي يطلع عليها والتي
يشاركم فيها بملء الأسف - بعض الأساتذة الذين ألقى على
عاتقهم تربية النفوس وتطهير القلوب وتنشيف العقول لذلك كان
صابر في حرب متواصلة ليس فيها للمتقاتلين هدنة - تعلم كيف
يبتسم للرفقاء بينما يكون قلبه مفعما بالحزن وعقله ساجما في دياجير
الظلمة من الأفكار ، لأنه إن لم يفعل ذلك ازدادت بغضاؤهم
وتنكروا له ، وكثيرا ما كان يخفي باطنه عنهم بالاكتمال الذي يعلو
محياه مجاراة لهم في حين أن قلبه يخفق سرورا لأنهم فشلوا في الوصول

إلى غاية دنيته !

يا الله ! إن الإنسان ليعيش الآن بين آلام نفسه وما ينتابها وبين الآلام التي تنتاب الغير رغم أنه ، حتى ولو كانت هذه الآلام لا تتفق أسبابها مع غايته ! حقاً إن الشرف آية وجود الإنسان الحقيقي وأن مظهرى الشرف ، الأعمال والأقوال ، فالأعمال البرية من الدنس والأقوال الصريحة التي لا يخشى في ترديداتها رغم قسوتها ومرارتها - لومة لائم ، هما ما نقصد أن نقول عنها ونصفهما بمظهرى الشرف ، ومن مجرد من هذين المظهرين أو من كان له مظهر يتنافى في أمره وشكله مع ما بسطنا ، فهو خاطيء دنيء لا يقيم أقوله ولا لعله وزن أو حساب !

ما بالنا قد تركنا الجدة العجوز وأخبارها ، لقد تركناها تئن لعظم مصابها في ولدها خليل ، كم رجعت العجوز المسكينة يبصرها إلى غابر أيامها حيث استنفذت كل عاطفة من عواطف الحنان - لولدها العاق - ثم ذكرت غلطاتها التي أودت بها إلى هذا ، لقد أضناها الأسي وأسقمها الألم ، بيد أن قضاء الله حينما

أصابها في « خليل » ، الذي أضحي طريدا مكروها ، قد وقع فيها بلطف ورحمة ، فما أكرم خالقنا الذي يتبع شدة القضاء بكبير المؤاساة وعظيم الرحمة !

لئن أسقمها مصاب الابن بالأمس ، فقد أحيانا زهاء الحفيد اليوم ، فهي تنظر إليه بعين الضراعة إلى الله أن يعوض لها ولزوجها عن والده به وطالما كانت تجلس بقربه وزوجها فرحة بانتصار صابر على جده في كثير من الوقائع في الشطرنج !

وقد اتفق يوما أن جاء صابر إلى المنزل ووجهه مكفهر يكاد يتطاير الشرر من عينيه ، وكان أول من نظره على هذه الحال الغريبة تلك العجوز جدته ، فأوجست خيفة عليه أشدة حزنه ، واعتزمت أن تبادره بالاستفهام والاستفسار عن سبب غضبه ، فما كادت تلفظ السؤال حتى شاهدت صابرا وقد اعتورته رعدة غريبة وخر ساقطا على وجهه فرق أحد المقاعد الطويلة ، ثم انهطل الدمع المحرق من مآقيه ، فأخذت العجوز المسكينة تسمع منه خريرا وشهيقا ، فلم يسعها إلا أن تقترب منه وتخطأ به : صابر ! ماذا أصابك ؟ أخبرني عن حالك وارحم شيخوختي ، لقد أذبت فؤادي وقطعت أحشائي

فما الذى أوجعك لتبكي ولتقتل نفسك غما وكدا؟ اعرض يا ولدى
عما أصابك وهش وبش واذكره لى ، لا متأثر ابل هازنا بشدته
ساخرا بجسامته ا

يا لله اإله لا يجيب نداء هذه العجوز البائسة التى تحركت فيها
عاطفة الآسى والحزن ، فأرخت لعيذها عنان الدمع وبكت بكاء مرارا
«ولكن لم تبكى يا أماء؟ ألا أتركينى ونفسى... دعيني أبكى
فليس هناك ما يخصك اإن كل شيء يعنينى أنا فقط ، هذا هو كل
ما تلفظ به صابر عندما استشعر بمرارة بكاء جدته العجوز ، وهى
جالسة بجانبه تمر يدها الطاهرة على جسمه المرتعد كى تسكن ثائرتها
وكان دموعات صابر الحارة كانت مفرجة لكربته ومذيبة
لثائرة نفسه ، وما هى إلا دقائق قليلة حتى نهض بن يدي جدته وقد
جف دمع عينيه ، ولكنه وقف متوسلا إليها ألا تخبر جده ووالدته
«صفية ، بما كان من حاله فى يومه ا

«ولكنك لم تخبرنى بقضيتك ، وأنا لا أستطيع أن أقبل هذا
الرجاء إلا إذا أسمعتنى كل ما كان لك فى يومك وافترقت به قوة
عزيمتك وقوة بأسك ، فان فعلت ، عاهدتك على ما تريد» هكذا كان

جواب العجوز التي شاءت أن تصل إلى أعماق قلب صابر ، ،
فأطرق صابر برأسه هنيهة يفكر في أمر هذا الشرط ، ثم رفع
رأسه وأخذ يقول بصوت يتهدج وقاب مضطرب وعين تموج في
بحر من العبرات : أماء ا كنت ولا أزال أشعر بوحشة في حياتي
وقفر في حياتنا جميعا ، ولم أشأ أن أشعركم بهذا ، لأن مداركي
العقلية ومعارفي العلمية كانتا لا تساعداني في التعبير عما يحتاج قاي
ويرتاد رأسي من الأفكار ، بل كثيرا ما كنت أنجنب توجيه
أنظاركم إلى تلك الحالة النفسية التي تعتورني كلما مر بخاطرتي طيف
هذه الذكرى المؤلمة .. كم سمعتكم تذكرون والدي وتلفظون اسمه ،
ولكنكم لم أخفيتم عني أيضا أية معلومات أقف بها على حاله أو مقره
و كنت ولا أزال أرى من الغضاضة عليكم أن أسألكم إيضاح هذا
السر العميق الذي يرتبط بحياتي بمقدار ارتباطي بكم ، ولكن ما
حاولتم إخفائه عني قد علمته على لسان الناس وكشف لي الغطاء عن
أمر هذا الذي كان سبب بعثي إلى هذه الدنيا ، حيث يواجهني
الاشقاء ويصادمني البلاء ا ،

قالت العجوز : بيد أنك قد استعصت بحدك عن والدك ا

صابر : أجل يا أماء ! ولكن شعور الانسان بوجود الوالد
تعزية كبرى ، لا سيما عندما يصطدم والدهر المتكرر في جهاد
الحياة !

العجوز : ولكن يجب أن يكون هذا الوالد يذبوع فضل
ورحمة ليستثمر حياته البنون والأحفاد ، أما إذا كان بؤرة للفساد ،
فأقرب الناس إليه ، سواء أكانوا والديه أو أولاده أو أخواته ،
هم أبعد الناس عنه وأشد المخوقات بغضاله ، لأن حياته تكون
سبة لهم جميعا ، انظر كيف أنكروا كل الانكار بعد أن حاولنا
اصلاحه كثيرا ولولا فضل الله علينا ، لكنت يا صابر في هذا
اليوم كأحد صبيان الأزقة ، لا صناعة ولا حرفة ولا علم ولا خلق
ذلك لأن الوالد الذى يسفك دم الفضيلة فى كل حين وأن ، لا
يُنظر منه أن يعنى بتربية بنيه تربية كتر بيتك ومع هذا ، يا ولدى
أست قانما بجذك الذى عودناك مناجاته بلفظ « أبى » وهل يكون
لك فى أى وقت أو ظرف مثل هذا الوالد الذى لا يهنا إلا إذا
قنع برضائك أو سرورك !

وهنا تحرك الستار الذى يحجب باب الغرفة ، وفيما كان صابر

يجول بنظره في وجه جدته ، لمح هذه الحركة ، فقام من مجلسه مستأذنا وسار نحو ذلك الباب ، فإذا به أمام جده ووالدته ، ولم يكديحرك شفتيه بكلمة حتى بادرت أمه بـ... أهلا وسـمـلا ومرحبا يا ولدي ، فأنحى صابر أماءهما احتراما ، ثم دخل الثلاثة إلى المكان الذي ترك فيه صابر العجوز ، وكان الشيخ محمد ، يتكىء على كتف صابر ، وبعد أن استراح هنيهة حلق في وجه زوجته ، ثم قال : ما بالكما قد قطعتما الحديث .. هل في الأمر سر ؟

صابر : ليس في الأمر سر يا والدي البار ، وإنما أحببت ألا أعكر صفوكم بكل ما يجيش بصدري وخاطري وما يقف عليه على من الناس ، ومع هذا فقد كان حديثي مع جدتي عن والدي ذا فائدة كبرى ، إذ قد ألمعت إلى الجدة بشيء عن الأخلاق والفضيلة ، وحبذا أيها الوالد الكريم المحنك لو أدبت بجديد لنا ، فإن في ذلك أعظم نفع !

صفية : نعم أيها العم المحترم .. ولتكشف لصابر عن كل شيء لا يعرفه ، فقد سار الآن أهلا لمعرفة ما كان من أمر والده العاق الذي أسعده الله ببعده عنه ، وهو على الحال التي نعلها !

الجدة فاطمة : إني إذن غير مقيدة بالعهد الذى قطعته على

نفسى لك يا صابر ؟

صابر : نعم يا أماء !

الجد (بعد أن تسر له الجدة كلاما) : اجهد نفسك يا صابر

فى محرأية ذكرى لأبيك الشقى من رأسك ، فإن كثرة تفكير
الإنسان فى الدنس قد يجلب الدنس إليه !

صابر : واسكن ما بال الناس إذا رأونى اليوم ، يظهرون

لى التألم لحالى ، وإنى لأخشى أن يؤلمونى غدا بمعايرتهم إياى بمصابى !

حتى كان ما كان اليوم من افتقارى لمزيمتى واستنكارى لحياى ،

ولم يخفف عنى الألم إلا تلك الدموع التى أذرفتها !

الجد : أما الذين يظهرون التألم ، فهم جماعة حسنت طويتهم

وسامت نيتهم واسكن ضعفت عقليتهم ، وهم بينما يقصدون النفع

والاحسان ، يسببون الضرر والاساءة ، ولو أنهم عقلاء فضلاء

لأظهروا لك كل آيات العطف دون أن يوجعوك بكلماتهم السمجة

التي يلفظونها بفكرة التعزية ، وأما الذين يتبجحون بذكر عيوب

الناس ومعايرتهم بها ، فهم جماعة السوء بل هم فقراء الأخلاق

ضعفاء الايمان ، وفي اعتقادي يابني أنهم أكثر الناس عيوباً ، بل
وانهم لا يقصدون باندفاعهم في تيار السفالة والحسنة بذكر عيوب
الناس أو تجسيمها أو الاقتراء عليهم بها إلا غرضاً واحداً وهو
وضع ستار على عيوبهم أنفسهم ، فهم يريدون يا بني أن يشغلوا
أذهان وعقول الناس بذكر مسائل غيرهم حتى تنسى دنياهم
والآن وقد علمت ذلك ، فتمل لي إذن ما الذي حدا بك إلى
الاندفاع في تيار الغضب والحزن ؟

صابر : أب البار .. منذ تفتحت أكام أفهامي استشعرت بشيء
من الشقاء ، فبينما كنت أسمع نداء الأطفال لآبائهم ، لأجد ذلك
الذي يهيج إلى قلبه الطفل فيرتضع ألبان شفقتة وحنوه ، ولكنني
كنت أتسلى بضمان إلى صدرك الرؤوم وارثاف عذب حكمك
الأبوية ، وكذلك كنت أجد من حنان أمي وعطف جدتي ما ينسبني
هذا الشقاء ، بيد أني طالما سألت أمي عن ذلك الألم الملازم لنفسى
وتلك الوحشة التي لا تفارق قلبي ، فلم يكن جوابها شافياً لما يبتأني
من تلك الحالات التي تتجدد كلما طافت بمخيلتي فكرة حرمان من
والد حقيقي ، والد أستند عليه كاستنادي عليك في تكوين مستقبلتي .

يبد أن حزنى الكبير الذى كان يبدو على وجهى لكثير من
رفقائى فى المدرسة ، قد جعلهم يتساءلون عن أسباب غمى . ولم أر
من الصواب أبدا أن أكشف لأحدهم أو بعضهم عن أمرى
الذى هو سبب أو جاعى .. أو اه يابى .. غير أن شدة الحزن قد
دفعتنى إلى الانتساب ببعض الرفاق فى الدرس فأنخذت ثلاثة
استخلصتهم واصطفيتهم ليكونوا لى نهم الصعب وفاء وإخلاصا
ومن العجب أن يكون من وقع عليهم اختيارى قد شقوا بموت
آبائهم كما شقيت بحرمانى .. سألوني عن آلامى وأسبابها ، فأجبتهم
بالسكتان ، والى كن خارت عزيمتى يوما عندما عثورتى حالتى النفسية ،
فكان هذا مدعاة لادخولهم إلى قلبى وقرعهم باب اسرارى ، وسرعان
ما فتح على مصراعيه وأخذت دقائق السر تدفق على لسانى ، وما
كان أبلغنى فى التعبير عن هذه الأوجاع التى تنازعنى فى الحياة المظلمة
الحلوة التى نخوض فيها ، وكانت عبراتى الساخنة ثم عن مبلغ
تلك الآلام التى حركت ساكن أشجان هؤلاء الأيتام الذين أسرفوا
معى فى استنزاع بحار مآقينا التى در فيضها وفيضانها ، ومرت بنا
ونحن جلوس على مقاعد الحديقة التى كنا فيها عجوز ورممت بنظرة

إلينا فراعها ما شاهدت ! أربعة في مقتبل العمر قد سبحوا في بحار
من الدمع الدافق ، مالت رؤسهم وسبالت أعينهم ووجعت وجوههم
يا لتعاستكم أيها الأبناء اعلام تبكون وأتم في ريعان شبابكم ؟
أيتام فقدتم آباءكم وأمهاتكم ، وكلكم أخوة ؟ هذا ما نطق به العجوز
التي كانت كلماتها بمثابة النار عند اقربائها من الهشيم الحلاف فأذكت
جهنما بين ضلوعنا وازددنا انتحابا ! بيد أني قد تذهبت لسؤالها
فرقات بعض مداми المنسكية وخاطبتها بقولي : « نعم يا أماء ، إننا
أخوة في الشقاء قد تلسنا والدينا فلم نجدهم ، انهم بين أموات قد
ذبلت حياتهم أو أحياء استقبحت ذكراهم ،

فقلت العجوز : وكأني يابني بالاولين خير من الآخرين !
فقلت لها : ولهذا ترين يا أماء أن وقع المصائب على أعظم من
وقعه على غيري !

وهنا تنبه رفاقي الثلاثة من نوبة أحزانهم ونظر أحدهم إلى
ساعته ، فاذا بنا وقد قطعنا أمدا طويلا في معمعان الآلام واستنزال
العبرات ، فنهض « زكي » يقول : علينا أن نفي بوعودنا التي قطعناها
على أنفسنا ، وقد ذكرت يا « فريد » كما ذكر لي « واصف » ،

أنكما مرتبطان بميعاد مع صديقين لكما ، فهلا تريدان انجاز ما
وعدتما به ، لقد أزف الوقت ، فلنوقف عبراتنا ، وليكن وجود
هذه السيدة بيننا كرحمة من الله نزلت بنا فضمدت جراح
قلوبنا وأحشائنا !

نظرت العجوز نظرة حنان إلى زكى ، كما حدثت بنا ملياً ثم
انبعثت تقول : بارك الله فيكم ! أجل .. دعوا المدامع الآن واوفوا
بعهدكم فإنه لا شيء أحب إلى الناس من ذلك الوفى الذى إذا قال
فعل وإذا وعد أنجز !

« بل بارك الله فيك أيتها الأم الحنون التى رقات مدامعنا
بوجودك ، وكأنا بك ملاك الرحمة بعثك الله إلينا ، هذا ما أجبناها
به ، ثم استأذنى رفقاى الثلاثة للانصراف مسلمين على تلك العجوز
التي أخذت مجلسها بجانى ، وأنا لا أزال دافق الدمع خافق القلب !
محمد : ولعل تلك العجوز هى التى ألمعت إليك بشيء عن خليل ؟
صفية : إني أظن ذلك اييد أنك قد أذبت قلوبنا يا « صابر » ،
بوصفك الممتلئ « أمى وحرقة ، فبالله عليك ارحم والديك ، واطرق
باب غرضنا مباشرة !

الجدة فاطمة : لا تقاطعيه يا صفية ، وليقل ما يميله عليه وجدانه
وشعوره ، فان في ذلك تعزية لنا وله !

صابر : نعم يا جدتي ، فاني متى أعدت ما وقع لي ، شعرت
بسأوى وتعزية لهذه الوحشة التي تنتابني ، ولكنني مع هذا أرجو
أن لا تكونوا بحديثي الطويل قدم مللتهم وتألمت ، وعلى أية حال فاني
أصارحكم الحقيقة ، أني شعرت بميل كبير نحو هذه العجوز حتى
أفضت لها بكل ما وصل إليه علي من أمر والدي ، وكيف أني كلما
خلوت لنفسي طاف بي خيال القوس والشقاء فلسع قوادي ، ثم
زدتها ايضاحا كطلبها فذكرت لها اسمي واسم جدي الذي ما كادت
تسمعه حتى تهيج صوتها بكلمات رقيقة دلت على أنها تعرف ابي
وتعلم مقره !

الجدة فاطمة (بلمحة حادة) : وهل اصطحبتما إلى مقره ؟

صابر : لا تعجلي يا أماء ، فاني آت إليك بالقول القدرت العجوز
لحالي حينما طلبت إليها أن تساعدني على رؤية ولدك خليل ، وأن
تجمعني به لا تبادل معه ولو بضع كلمات ، لعل في ذلك انحدادا لهذه
اللهب المستعرة بين جنبي ، فأجابت طابتي على أن يكون ذلك

في بيتها ... ففي بيت رفيع العمار ، التفت به الجنان والأفئدة ،
قضيت شطرا من الوقت في حضرة ابن هذه العجوز الذي أوقفته
على حالي ، ثم اجتمعت بهذا الوالد العائر وحاولت أن أحتل قلبه
أو أن أحله في قاي ، فتناكرت مشاعرنا وتباعدت أروصا لنا ، خلته
والدا ودودا ، فإذا بي أراه عدوا والسوداء ، حافي القدمين ممزق اللباس
رث الهيئة ، تشفق من رؤيته الغلظة المتناهية والطباع الممتنكرة
المتباينة .. ويا لهول ما رأيت .. لقد كنت أصعق أو أذوب تحت
نيران الآسى والغم والحجل والحياء ! .. فلما رأيت تلك العجوز
حالي من الغم والكمد ، أدركت ما سيعقب هذا من سوء الأثر ،
فاختلست من هيتي النظرات ، ثم انبهت تسر إلى في أذني هون
عليك يا صابر ، فليس هذا بوالدك ، وسرعان ما أمرت الخدم أن
يخرجوه من حضرتنا ، فداخلى الشك فيما رأيت وسمعت ، وظننت
أن العجوز أرادت أن تضرب لي مثلا لمن أبعث عنه تبغيضا لي
فيه ، فشكرت لها ذلك الصنيع ، وانصرفت من بيتها على أمل في
اللقاء ... بيد أني ما كنت أخطو بضع خطوات في الشارع حتى
استقبلني أحد الرفاق ، فشاهد سوء حالي وتلبد أفكاري ، فأخذ

يناشدني سرد الأسباب وفيما نحن بين الأخذ والرد ، وإذا بذلك الهيكل الوحشي الذي جمعتني به تلك السيدة العجوز في بيتها ، هجأما على براودني الصحبة وأنا شدة الفرفة . . فلما اشتد بنا الجدل ، حاول أن يرغمني على السير معه بقوة الغشومة ، فأقلت منه بعد أن اجتمع الكثير من الخلق وأصبت بكشف الناس لماري ووقوفهم على دفين أسرارى . . . لهذا بكيت لشدة الألم مما أصابني في يومى ، وما كنت أريد إيلاكم ، فمذرة ياوالدى !

الحمد : الآن وقد ختمت مأساتك يابنى ، وبعد أن لعبت كل مآتك بنفوسنا وعشت بأمن قلوبنا واستزلت عاصر دمعنا ، لا أدرى شيئا أقوله ترويحاً لأشجاننا ، إلا أننا سعداء بوجودك ونبوغك وأن ما قد شعرت به من الجفاء نحو ولدنا العاق ، خليل ، هو الدليل الأعظم على علو همتك وحسن أدبك ، فلا تحزن واتحمد الله على ما وهبك من عقل وفطنة وما ألهمنا من الصواب فى السعى لإنشائك على غير النشأة التى أنشأنا عليها والدك واجعل صدرك خزانة أفكار زاهية سارة ، تروق النفس والوجدان والتصورات الجميلة والتذكرات الحلوة والمواضى الباهرة والأفكار والأقوال

السيدة الرشيدة ! ولكن بالله عليك يا ولدى ، هل تذكر لنا اسم
هذه السيدة الصالحة التي دعيتك إلى بيتها ؟

صابر : أما اسمها فقد سمعته عن لسان ولدها في حديثي معه
وهو « فهيمه » ، وقد استفسرت عن اسم زوجها المتوفى فقبيل لي
« حسن بك » ،

الجد والجدة وصفية (معاً) : السيدة فهيمه ! . . لقد عرفناهما
الجدة : كانت جارتنا لأمد طويل . . وإني لأذكر أنها وضعت
غلاماً في ليلة رفاف أمك ، ولعله ذلك الذي اجتمعت به في دارها
الجد : وقد كان زوجها رجلاً صالحاً تقياً ، وإني لأذكره يوماً
وقد تبني ابنة لقيطة وجدها أحد رجال البوليس

صابر : إذا لم نخنى ذا كرتي كانت هذه الابنة هي التي لمحتها
عرضاً عند صعودي على السلم والتي كان يناديها حمدي ابن هذه
السيدة باسم « حكمة » ،

الجد والجدة : نعم حمدي وحكمة . . حمدي وحكمة !
صفية : إذن يكون من السهل جداً أن نجد تعارفنا بهذه الأسرة

الكريمة !

الجد : نعم وفي القريب.. ولسكن (وقد نظر الجد إلى ساعة الحائط)
لقد أزفت ساعة العشاء . فهل بنا ا
وكانت قد دقت ساعة الحائط الساعة الثامنة ، فمضوا جميعا
وهم على اتفق في أمر تجديدهم لتعارفهم بأمره حسن بك .

الفصل الثالث

الرزيلة

تعود خليل أن يتردد على صحبه المفسدين الفاسدين على دور
الدعارة ، ثم ما لبث القليل من الزمن حتى اتخذ له خلية من البغايا كانت
إذا طلبت إليه أن يكون حضوره لديها بعد منتصف الليل ، يكر في النوم
في بيت أبيه الى أن تحين الساعة المحددة ، ثم ينسل من فراشه خفية ، فيفتح
الباب ويخرج ، بيد أن والدته طالما لاحظت عدم وجوده في فراشه صباحا
وكانت إذا أعطت ذلك أهمية تذكر سألته في ذلك أي عذر للسيدة فاطمة
التي كانت لا تخبر والده بأمره ، ولوا اتفق لهذا الوالد سماع أي شيء عن
ولده ، كانت هذه الأم لشدة شغفها بخليل أول من يدفع عنه أرينكر ما وقع
فإن لم تستطع لا هذا ولا ذاك ، أخذت تخفف شدته وتلطف حديثه !

وقد ظنت السيدة فاطمة أن خير علاج لولدها ، هو الاسراع في تزويجه من ابنة عمه صفية التي قامت وتقوم هي وزوجها على تربيتها حتى بلغت السابعة عشر من سني عمرها ، وخاطبت (بعد ترحيب زوجها لافسكرتها) خليلا بشأنها فلم يعترض أو يمانع ، وما هي إلا أيام قليلة حتى أقيمت معالم الأفراح العظيمة ، أما صفية فقد قابلت خبر الاعتزام على تزويجها من ابن عمها خليل بشيء من الأسف والحزن ، وفقدت منذ علمت بذلك الكثير من ابتساماتها العذبة ، فاذا بها مكتئبة طول نهارها غارقة في بحار الأحلام المفزعة المخيفة في منامها ، وذلك لأنها كانت على علم تام بسوء خلق وتربية ابن عمها ، انك لتراها تختلس الوقت لتخلو بنفسها طويلا لتروح عن ضيق صدرها ولتكبح جماح نفسها الشائرة بالبكاء ، بيد أن آلامها وأوجاعها التي عبرت عنها لنفسها فقط بعبراتها ، لم تغنم أفتيلا ، فنزل بها القضاة وأمسست عروسا لمن طالما ارتعدت فرائصها عندما كان يقع نظرها عليه ثملا !

وكان لحبر زفاف خليل على ابنة عمه رنة حزن في قلب العاهرة أنيسة التي صممت على الانتقام من رفيقها ، وأخذت تدبر المؤامرات الدنيئة الفظيعة ضد خليل مستخدمة أولئك السفلة الذين يرتادون بيوت

الدعارة ويستبيحون كل منكر في سبيل رضائها، فلما رأت تخاف عشيقها
عن الحضور إليهم، صممت على أمر آخر وهو العمل بنفسها للانتقام منه
وكانت تعرف منزل والد خليل، فاخذت رقب بابيه عن بعد، حتى إذا
مارأت خليلاً خارجاً من المنزل، تعقبت خطواته إلى أن يكون وسط
الطريق العمومي فتهم هذه المومس الحقيمة ومعهما نفر من العاهرات
بالمهجوم على خليل، وتأخذ أنيسة برقبته بينما تساعد حليفاتها اللاتي
جئن معهن في الصراخ والعويل، ولا تنتهي أمثال هذه الحادثة المؤلمة
إلا بفضيحة كبرى يشاهدها الراثون والغادون ثم يتمزق ملابسهم
وضربه ضرباً مبرحاً، وإذ لا يستطيع مقاومتها، وإلا كان نصيبه
أكثر من حليفات المومس اللاتي سرعان ما يخلعن «شباشبهن»،
ويمسكنها بأيديهن ثم يهوين بها على خليل، ويكفي أن تصور
جندى البوليس يسير قابضاً يمينه على خليل وبشماله على أنيسة
ومن خلفهم العشرات من أولاد الشوارع والأزقة
بيد أن شدة ملاقاه خليل من هذه الفاجرة قد أبغضه فيها،
حتى فضل المقام في المنزل خشية اصطدامه بها !
وما هي إلا أيام قليلة قلت أو أوقفت فيها تلك المظاهرات العدائية

حتى قطعت أنيسة كل أمل في رجعه إليها بعد أن أصابها مرض
الزهرى الخبيث ، وقد استلزم علاجها عدة أسابيع طويلة أنستها
أحقادها على خليل ، ولم يعد خليل يفكر أبداً في أنيسة ، وذهبت
ذكرائها من مخيلته كلية ، كما محيت ذكرائه من رأس هذه العاهرة
التي كسدت بضاعتها بمرضها ، ولم يعد هناك من حرج أو افتيات
إذا أرادت أية مومس أن تمتد يدها إلى خليل لتتخذ رفيقاً لها
ولهذا كان بينهم موضع منافسة يتجاذبونه في كل وقت يشهدنه !

وقد اتفق الخليل أن ذهب يوماً إلى بيت إحدى المومسات
وكان قد اعتاد الذهاب إليه فشنر بمحركة غير عادية بين العاهرات
اللاتي تضمن تلك البؤرة ، وظهرن له كأنهن يخفين أمراً ، بيد
أنه لما سألهن عنه لم ينل منهن جواباً شافياً حتى رابه أمرهن ،
وتسربت إلى رأسه فكرة خطيرة ، هي أنه من المحتمل أن يكن
قد نصبن له شراكاً لا يقاعه ، وبينما كان يحول بفكره في تمحيص
هذه الفكرة الغريبة المدهشة ، لاحظ عيون المومسات تتحول
بين وقت وآخر - في أثناء سمرهن معه - إلى جهة باب الغرفة التي

كانت خلفه ، كأن صاحباتها يراقبن شيئاً ، فازدادت ريبته وحيرته واضطرب قلبه ، وما هي إلا لحظة حتى وقف بين صاحبة البيت وبين عاهراتها وطلب إليهن مهدياً بعصاه التي كان يحماها في يمينه أن يخبرنه عن أسباب اضطرابهن !

ولسكن نهضة سيدة كانت تبكي بكاء مرأى في تلك الغرفة التي طالما رصدتها بأعينهن ، كانت خير جواب له على سؤاله وتهديده لهن ، ليكشفن عن سرهن في تلك الليلة ، فلما وقع صدى صوت هذه الباكية في أذنيه ، ولاهن ظهره وأسرع في الدخول إلى تلك الغرفة ، بعد فتح قفلها ، ولسكنه لم يكدي يخطو خطوة إلى داخلها حتى شاهد امرأة تلتحج جالسة في لباس الزيارة متكئة على مسند المقعد وسترت وجهها المكتتب بيديها المرتعشتين ، ولما هم بالدنو منها ، أسرعت صاحبة البيت منتظمة بالحيلولة بينه وبينها ، ثم أخذت في اللعن ، مهددة متوعدة تلك المرأة الباكية ، على أنها ما لبثت أن استدارت بوجهها إلى خليل وأخذت تخاطبه : إنهما من نصيبك الليلة يا خليل بك !

خليل (مخاطباً الباكية) : لا تحزني ولا تبكي وارفعي يدك

من فوق وجهك المشرق ، ودعيني أشاهد محاسنك الفاتنة (ثم
أخذ يمسح دموعها ويمر بيده على رأسها وعلى ظهر يديها المبللتين
بالدمع ، فزادت المرأة انتحابا) !

إحدى المومسات : كفى عن البكاء يا مجنونة !!
مومس أخرى : هس .. هس .. حسبك بكاء !! وانعشى
و د فرفشى ، !

خليل : وماذا يفيدك بكائك يا حبيبتى ؟ دعيني أسمع أمرك
لعل أجد لك مخرجا منه (ثم نظر إلى منتظمة وقال) : ماذا يكون
من أمرها ؟ هل ضربتها بيدك يا ملعونة ؟

منتظمة : أبدا .. وبالعكس منذ ظهر هذا اليوم وأنا أكرمها
خليل : وفي أى بيت كانت قبل مجيئها إلى هنا ؟

إحدى المومسات : (دى فروته جديدة) هذه فاكهة حديثة !
منتظمة : كانت كما تقول فى بيتها ، ولما تعرفت بها وعرضت
عليها أن تعاشرنى قبلت منى ذلك ، ولسكنها بعد وصولها أخذت
تبكى كما تراها !

الباكية واسمها رقية : لم تعرضى على ذلك أبدا ، وإنما

دعوتنى إلى زيارة بيتك بعد تعرفى بك عند الخياطة مارى ، وما كنت أعلم قبل وصولى إلى هنا أنك من « بنات الهوى » ، ا من البغايا منتظمة : كفى يا عاهرة .. ألا تعرفينى قبل الآن ؟

رقية (يزيد انتحابها) : ويللك ياظالمة من الله (ثم سقطت على قدمى خليل متوسله اليه بحق أقرب الناس اليه ، ومستحقة إياه بالله أن ينقذها باسم المروءة والشرف)

خليل : خفى عنك !

منتظمة . انهضى باعاهرة .. من ذا الذى يستطيع إنقاذك ؟ ؟ وهل أنت فى جهنم حتى تطلبين النجاة ؟ ألسنا مثلك من عائلات طيبة .. وما الذى ينقصنا من السعادة والهناء .. ألسنا متمتعين أكثر من هؤلاء اللانئ يقرن فى بيوتهن أو يحبسن فيها كالعصافير فى أقفاصها ؟ لماذا لاتكون لك الحرية فى اختيار أكثر من رجل بينما تعطى للرجل الحرية فى اختيار أكثر من امرأة واحدة .. ألا تحمدن الله على كسرك لهذا القيد بمجيئك إلى بيتى (ومدت يدها لاطمة بها رأس المسكينة رقية ثم عادت تقول) كفى ! كفى ! كفى بكاء !!

واستمرت منتظمة مسترسلة في الحديث بكل ما استطاعت من خسة ودناءة ، محاولة استدراج المسكينة رقية في الكلام ، فلم تفلح أبدا ، ولم تكن تسمع لندائها ولكلماتها التي تفوه بها أى جواب أو إشارة من رقية التي ازداد انتحابا وعظم شبيبها ومدت يدها إلى خليل قائلة : ارحمني أيها الرجل وخذ يدي ، ولكن شاءت منتظمة أن توقف رقية عن الاستنجاد خشية أن تؤثر بكلماتها على عواطف خليل ، فرفعت يدها لتضرب هذه المسكينة على وجهها متوعدة ، فمنعها خليل من عمل أى شيء وقال : دعي الآن كل هذا واتركيني لها ، وأنا كفيل باقناعها بالعدول عن طريقها المحزنة ! اخرجن جميعا وانركنتي وإياها ! خرجت المومسات من الغرفة تاركات رقية مع خليل وكان أول ما خطر لجميعهن أنه سيسـتولى على قلبها وعقلها ويهتك سر عذراوتها .

أما خليل فقد أغلق عليه وعلى الباكية باب الغرفة ، ثم أخذ مجلسه من المقعد بجانبها ، وهي لا تزال تحجب وجهها المسكتذب بيديها المرتجفتين ، بينما كانت عباراتها تتساقط من بين مفارق

أصابها اللطيفة - كانفراط عقد اللؤلؤ - حتى غسلت بمدامعها
حجرها الطاهر ! ولا نخال القراء إلا تواقين للوقوف على ما كان
يجول في خاطر خليل من الأفكار ، وما كانت تطمح إليه نفسه من
تلك الساعة التي انفرد بها بتلك الدرة الفريدة ، وإنه لمن الحق أن
ننصف الانسان بالقول بأنه مهما بلغت سفالة الخلق عند المرء
من الدركات ، فانه واقع لا محالة تحت طائلة كثير أو قليل من
التأثر النفسى إذا اصطدم بحادثة خارقة لمألوفه أو عادته ، أو طرأ
عليه أمر لم يكن يتوقعه وكان فيه ما يؤلم القلب والنفس !

لهذا لا يدهشنا أن نعلم باعتزام خليل على انقاذ هذه السيدة
التي فتنت قلبه الحجرى ببيكاتها الحار ، ولمكن كيف يتفق له
تحقيق ذلك القصد الشريف ، وهو فى ثورة نجسة ملوثة بسفلة
القوم المتعاضدين مع صاحبات البيوت التي هو فى إحداها ؟
هذا كل ما كان يجول فى خاطر خليل أثناء جلوسه بجانبها صامتاً
يشهد بكامها المر الذى كان كالمعول الحاد يخرب فى هذه الصقح
التي تحجب غريزته الفطرية الطاهرة ، وأخيراً ارتأى أن
يطمئن قلبها لكي يقف على حقيقة أمرها ، وليسهل عليه الاتفاق

معها على إنقاذها دون أن يثلم عرضها في هذه البيئة المسافطة ، فقل لها : لقد أذبت قلبي أيتها السيدة بيكائك وإني لا أريد بك إلا خيرا ، فكفكفي بالله دمعك ودعيننا نتكلم في حقيقة أمرك فقد خلا لنا المكان !

واعلمى أنه كان يفرحني جدا أن تكوني صيد ليلتي ، ولكن حلت والحمد لله مكان هذه الفكرة الدنيئة السيئة فكرة طاهرة شريفة ، هي العمل بكل جهد لإنقاذك ، فليطمنن إذن قلبك ! ولقد كانت كلمات خليل بردا وسلاما على الباكية رقية ، نخرت على قدميه تقبلهما شكرا وضراعة وتوسلا ، وقدام تزجت عبراتها من الألم والشقاء بعبرات الفرح بحلول الأمل في موضع اليأس وتسرب شعاع الهناء الى قلبها الكليل ، فكانت مدام معها بحرا ثجاجا يفيض على نفس خليل القاحلة وعواطفه الماحلة فيحوّلها الى جنة غناء ، ينبت فيها زرع الشهامة والشرف والوفاء ، فقالت وهي جاثية على قدميه بينما هو يحاول انهاضها لتأخذ مجلسها : أملاك أنت أيها الرجل الشهم أرسله الله لإنقاذ بائسة منكودة الحظ من هذه الهاوية التي ليس لها قرار ؟ أجنّت لترفع عن شقية شقوتها وترد

إليها هنامتها وسعادتها ؟ أم بعثت أيها الملك الكريم لنصرة الفضيلة
ونجدة العفة وانقاذ الشرف ؟

خليل (وقد سبحت ما فيه بالدمع) : نعم ، هداني الله لإنقاذك
ياسيدي ، واسكن . . حذار أن تتكلم بصوت عال ، عليك أن
تخبريني بكل قصتك وما سبب وجودك هنا ؟ وهل لي بالوقوف
أولا على اسمك الكريم ؟

رقية (بعد أن رفعت يديها من فوق وجهها) أما اسمي فرقية . .
وأما أمري فيتلخص ياسيدي في كلمتين هما : عثرات الشباب ،
ومعناهما أني افتقدت والدي منذ عهد ليس ببعيد ، وقد تركا لي
بوفاتهما أخا لم يندبها نفسه كما تركا لي شقيقتين بين السادسة والعاشرة
وكان هؤلاء الثلاثة كل ما أورثنيه والداي من عدة لأدهر ومؤونة
للاحياء ! أما أخي الذي هو أكبر مني سنأ فقد اقتنع بزوجة اجتمع
عليها ذات شيء من الثراء ، فلم يعن بشأنا وتركنا ندير حالنا بأنفسنا ،
وإنه لينخل علينا حتى بالسكنى بجوار بيته تنفيذاً لأوامر تلك
الزوجة القاسية وأمامها الظالمة ، وكنت إذا قصدته في حاجة استعصى
على أمرها ، لاقيت منه ما ألقى من الصخر الصلب ، بل وإن من

الحجارة لما تتفجر منه الأنهار ، وفوق هذا فانه لا يكتفى بالامتناع والرفض ، بل يصب على مبرح الأذى والضرب ، وإنه ليطامع في شيء من الحلى كان قد اشتراه لى والذى قبل وفاته ، وأنا أعلم بشديد حاجتى إليه وحاجة أختى للتربية والعيش ، فان وهبته ذخيرتنا نحن الثلاثة ، بددها وتركنا على حالنا من البؤس ، لهذا رفضت طلبته ، وأنا أعلم بمبلغ حاجتنا وحاجته .. وكانت زوجته القاسية تنفث في صدره من الحقد علينا ، حتى أصبح وكأنا له العدو اللدود ، وكانت ترتاد منزلى وأختى سيدى عجوز ، فشكوت لها حالنا مع شقيقنا ، وسألنها رأيها فى مصائبنا ، لاسيما وقد فقدنا كل شيء من ثمن هذا الحلى الذى بعته فى السوق لىكى نسد بشمنه حاجتنا إلى العيش .. فاقترحت على أن أخيط ، الملابس بالآجر وأحتمل الصبر ، وقد أخذت بنصيحتها ووفقت إلى معرفة خياطة مصرية أشتغل معها ، على أن أتقاضى ثلثى الأجر فى كل قطعة تقدمها لى لانجازها ، وكان فى مكسبى اليومى بعض الكفاية لحاجتى أنا وأختائى ، على أنى كنت دائما أبدا أطمع فى مضاعفة مجهودى لىكى يزداد دخلى وأنتمكن من اقتصاد شيء ينفعنا إذا وقع بنا مصاب أو اشتدت

بنا حاجة ، وفيما كانت تجول في رأسى فمكرة الادخار، إذ عرضت على إحدى الأجنيات الاشتغال في مشغلها الذى أقامته في بيتها بمرتب شهرى يزيد كثيرا عما كان يدخل إلى من مكسبي الدهرى المجزأ ، فطرت فرحاً بذلك وسرعان ما ذهبت إلى منزل هذه الخياطة التى سرها وجودى ، لآنى على علم تام بالتفصيل والحياكة حديثها وقديمها ، والسكن . . . والأسفاه لقد تسبب عن ذهابى إلى بيتهم مصائب الذى أنا فيه ، وإذا لم تدركنى الليلة رحمة الله ، فقد تدنست عفتى وقتل الجوع أختى (وهذا اعتورت رقية نوبة بكاء مر حركت كل أثر لماطفة شريفة فى خليل)

خليل : اسردى حكايته ، وتأكدى أن رحمة الله لا تغيب عنك وعن أختيك !

رقية : أشكرك وأرجو أن نجرى هذه الرحمة على يدك . . نعم ذهبت للاشتغال كما قلت عند مارى ، واتفق أنى كنت اليوم فى عملى ، فجاءت إلى جانبي سيدة اعتادت الحضور إلى البيت والجلوس مع صاحبته ، فعرضت على متوسلة - تفصيل زفاف عروس وانجاز خياطته فى مدة لا تتجاوز الأربعة أيام فى أوقات فراغى

من العمل ، فلم يسعنى ياسيدى إلا القبول ، وقد حددت لها الساعة الخامسة بعد الظهر وعينت لها محل الانتظار لأصطحبها إلى بيتها لمشاهدة الحراير والزخارف وللوقوف على المقاييس للتفصيل .. على أنى كمنت فى واد وكانت تلك المرأة التى تقودنى فى واد آخر ، وهل تعرف ياسيدى إلى أى بيت جاءت بي !! إلى هذا البيت حيث تقدم الأعراض للناس كالسلع (وهنا خرت رقية أمام قدميه) .. أسألك النجدة والمروءة وأضرع إليك بأعز شئ لديك أن ترحنى وتحفظ على عفتى وتنقذنى من هذه الهوة السحيقة !

خليل : انهمضى يارقية واعتقدى أنه لن يمسك أذى إن شاء الله مادمت حيا ، وعليك أن تتظاهرى بالسكون والرضى بالعيش بينهم ، حتى أذهب لاستدعاء البوليس واخبراه بوجودك هنا (ثم أطرق خليل قليلا وعاد فقال) لا .. يجب ألا أخبر جندى البوليس الموجود فى هذه النقطة القريبة .. يجب أن أخبر ضابط البوليس نفسه وأحاول إخفاء نفسى حتى لا أكون عرضة للانتقام هؤلاء العاهرات الدنيئات ، وهأذا ذاهب ، فتشجى ولا تيأسى وإذا سئلت عن أى شئ فلا تترددى فى الاعتراف ولو بأشياء دنيئة ،

لتأمني جانبهم في وقت غيبتى . . سأعود إليك حالا ، فالى اللقاء :
وستكونين بين أختيك في هذه الليلة . . . تشجعى !

وكان خليل قد خطا بقدميه نحو الباب عند آخر لفظة ، ولم
تمض لحظة قصيرة حتى قفل باب الغرفة بالقفل وأخذ مفتاحه
معه في جيبه ، وكانت منتظمة مشغولة هي ومن عندها من المودسات
في استقبال الزبائن أو الطارقين لبيتها من العائرين ، وأخذهم إلى
غرفة واسعة أعدت للاستقبال ، حيث يعرض جمالهن الصناعى الدنىء
وفىما كانت العجوز الفاجرة تستعرض عاهراتها على مشهد من
زائريها ، دنت من أذنها خادمة الباب فأسرت إليهما بكلمات قصيرة
لم تكده تسمعها حتى تهلل وجهها من البشر وهرولت إلى الخارج
فالتقت بخليل خارجا من عند رقية متظاهرا بالسرور ، فبادرته
بالسؤال عما وقع بينه وبين رقية ، فقال بكل شيء على هواك يا منتظمة !
منتظمة (دهشة) : أتقول حقا ؟ لا تضحك منى !

خليل (بثبات عجيب) نعم وإنى ذاهب الآن لا حضار شىء من
الخمر وسأعود حالا ، ولقد أغلقت عليها الباب وأخذت مفتاحه حتى
لا يتمتع بها غيرى في هذه الليلة (ثم مد يده فأخرج محفظة نقوده

وأعطى منتظمة منها ورقة قائلا (:خذى هذا الجنيه من تحت الحساب
.... سأعود حالا

منتظمة : برافو ! برافو ! مرحى ! مرحى ! لا تنفيس كثيرا ،
لأنى أريد أن أشرب معكما كأسا .. ولكن اسمع .. يوجد عندنا
الكثير من أنواع الخمور ، فلماذا لا تشتري من عندنا ؟

وفىما كانت تقول منتظمة هذا ، كانت أرجل خليل تهبط درجات
السلم ، ولم تمض عليه بضع ثوان حتى كان فى الشارع ، فرجعت منتظمة
إلى غرفة الاستعراض ، ولم تنهالك نفسها من الفرح فأخذت تبشر
سراً كل المختلطين من الرجال والنساء بوقوع رقية .

وبينما كان صدى ضحك ثلة الفسق والفجور يدوى كالرعد فى
الأمكنة لقريبة والبعيدة ، وإذا بالباب العمومى للبيت وقد ولجته فرقة
من الجند على رأسها ضابط ، وما هى إلا ثوان معدودة حتى كانوا
فوق رؤس منتظمة وعاهراتها ومن بينهم من الشبان .

الضابط شفيق (بخطاب جنده) بعد أن حدق بنظره فى جميع
الموجودين) : أحيطوا بهؤلاء ولا تدعوا أى فرد منهم يفلت من بين
أيديكم ، (ثم التفت إلى منتظمة وقال) أين الغرفة التى سجنتم فيها

رقية أيتها العاهرة الملعونة !

منتظمة (بثبات وتؤدة) رقية ١٩ ، من هي رقية يا حضرة
المعاون ؟ وكل ما عندي من النساء أمامك ، ومع هذا فتعال وفتش
البيت ! (ثم تقدمت نحو الباب وطلبت إليه أن يتبعها كي
يفتش الغرفات)

فسار الملازم شفيق إلى بهو البيت ، وفيما كانت المومس تتم
أعداءها بالكذب للايقاع بها بما أبلغوا عنه ، إذ وقفت بغتة
وأسرعت في وضع يدها في جيبتها واستخرجت شيئا وهمت بأن
تعطيه إلى الضابط الذي كان قد أدرك ذلك ، فأشار إلى اثنين من
رجالها بإشارة كان قد اصططح عليها ، وإذا برجلي البوليس وقد
قبضا على يدها وما فيها ، فأخذت تسب وتلعن ، فلم يعبأ الضابط
الشريف بما كانت تقول ، إذ كان قد وقع في أذنه صوت استغاثة
شديد من غرفة مغلقة فقصدها توا وضرب بابها بقدمه ضربة
شديدة ، فكسر قفل بابها ، وإذا به يجد نفسه أمام فتاة في العشرين
من عمرها تبكي وتنتحب ، وما كاد يقع بصرها عليه حتى جثت
على قدميه ضارعة إليه أن ينجها من هؤلاء الأوغاد ، فأخذ

الضابط بيدها فأوقفها قائلاً ، لقد جئت لانقاذك فاطمئني ، ثم استدعى أحد رجاله وطلب إليه أن يأخذ رقية الى العربدة التي كانت في انتظاره أمام البيت ا

ورجع الضابط إلى الغرفة التي ترك فيها جنده محافظين على من فيها من عاهرات وشبان ، فوجد أن الخمرة قد لعبت دورها في رؤس أكثر الشبان ، فأخذوا يعتدون على الجنود وعليه بفحش السباب ، فاعتبر ذلك اعتداء منهم على موظفي الحكومة في حين تأدية وظيفتهم ، فأمر باقتياد الجميع إلى دائرة البوليس لعمل المحضر اللازم ، وإنها لفضيحة كبرى إذ كنت ترى الشبان وقد ربطت أيديهم كلهم بحبل واحد ومن خلفهم العاهرات ، والكل يمشون في الشوارع المؤدية إلى القسم تحرسهم ثلة من رجال البوليس ، بينما ترى الناس غادين أو رائحين ، قاعدين أو واقفين يشهدون صفوفهم الحقيرة ا

وأخيرا بعد عمل المحضر اللازم في دائرة الشرطة ، دون أن يظهر خليل - بعد أن دبر الأمر وأرسل شيخ حارته لضمان رقية للافراج عنها - لم تمض الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، حتى

كانت رقية في وسط أختيها زينب وزاهية ، هاتين اليتيمتين اللتين قضيتا في انتظار اختيهما من الساعة الخامسة مساء إلى الساعة الثالثة صباحا ، وهما تبكيان ، لا تعرفان لها مقرا .

وفيما كانت في سبيلهما إلى مسكنها ، التقى بها خليل ، فقص عليهما ما كان من أمره ، وكان في أثناء سيرهما ، يكاد يسمع صدى دقات قلبها الخافق حنازا إلى أختيهما وفرحا بالنجاة !

ولما عاد خليل من جهاده الشريف ، أسرعت السيدة فاطمة إليه ببشرى ولادة صابر ، فحش وجهه وبش ، وكان قلبه الحار لا يزال يرقص طربا بنجاحه في إنقاذ رقية ، فأخذ في مشاركة الكل في مسراتهم ! وذهب إلى فراش نومه ، منهوك القوى ! ولقد تمثلها وهي راكعة أمامه ضارعة إليه ، تخيلها وهي واقفة قبله تعيد على سمعه استنجاها لغيرته ومروءته ، فاذا بها هيفاء في قوامها ، حسناء في طلعتها ، تتسلسل من رأسها سبائك من الشعر الذهبي قد عبثت به الأيدي في ساعات البؤس ، فانتشر على جسمها يظلال عارضتها ويحجب خصرها ويكسو صدرها ، لها عينان سوداوان ناعستان يظللها حاجبان مقرونان كأنهما في خضاب ، وكأن الكتابة

والحزن لم يذبل ورددني خديها فبقيتا زاهيتين بحمرتهما ، يكاد
يتخطفهما الناظر إليهما لما فيهما من جاذبية مسحورة وعطرية
ملحوظة ، دقيقة الأنف ، ضيقة الفم ، رقيقة الشفتين كستهما حمرة
الشراب الطاهر ، ذات عنق من اللجين الوردي يعلور بوة بيضاء
في جنة دانية لا يغيب الرمان عن أشجارها الوارفة ، غصن بان إذا
هفته عاطفة الأبي فهو الزهر في شذاه ، تتلمسه فلا تقبض يدك
إلا على فضيلة وارفة وعفة راشقة وشرف يزدهى وفضل يشتهى !
هذا تحركت في قلبه عاطفة غريبة ، فاذا بروحه تطير ونحوم
حول مسكن رقية التي سلب خيالها قلبه ! ولكن لماذا لم يفتن بها
عند رؤيتها رؤية حقيقية ؟ ذلك لأن الغريزة الطاهرة التي فطر
عليها كانت قد طمست على كل المحركات الشهوانية التي عنده ، ولم
ترفع عنها غطاءها الكشيف حتى نفذ قضاء الله وحفظ على تلك
البائسة عفافها ، وإنها لرحمة الله يرمق بها البائسين الذين لم يزعمهم
المصائب فيبقى إيمانهم بالله أكثر من إيمانهم بوجودهم !

وكانت رقية وحيدة في مسكنها ، مشغلة بتجهيز بعض الملابس

التي لم تنجزها لتغيبها ، وإذا بخايل يطرق بابها ، فوضعت على رأسها
الذهبية ما تحجب به وجهها الجميل ، ثم فتحت له الباب فدخل يتبعه
عجبا ، وقد أفاضت رقية في شكره على حسن صنيعه بلسان عذب ردد
آيات الاعتراف بالجميل !

ثم استدرجهم الحديث إلى ذكر شيء عن عائلتها وعائلته ، وهنا
أخذ خليل يأتينا بأقوال يفهم منها مبلغ ثروته العظيمة وجاهه
الكبير ، بيد أنها قابلت كلامه ببسط حقيقة الشريفة الصادقة !
أواه ياسيدى الكريم .. إني لأفكر في شقائي قدر تفكرى
في تعاسة هاتين الطفلتين اليتيمتين .. ولا أجد إذا جلت بنظري
يميننا أو شمالا من تأخذه الرحمة والرأفة من ذوى القربى منا فيعطف
علينا .. لقد ذهب ذلك العصر الذى كان فيه للاعراض ثمن واحد
هو الروح .. أما اليوم فالشقيق الحميم والقريب الحنون ، إذا
تعارضت أية مصلحة له مع مصلحة لشقيقه أو ذات القربى منه ، فإنه
سرعان ما ينتزع كل منهما من بين جنبيه تلك العاطفة ثم يطأها
بأرجله ولا يبالي إذا أصابه من وراء ذلك ما يشلم شرفه أو يلبس
كرامته أو يجرح عفة أقرب الناس إليه ! رجالنا الآن ياسيدى في

عصر المادة المجردة من كل العواطف والمعنويات ، لا يعبأون
بشرف أو كرامة أو عرض ، وكل ما يكون فيهم من ميل يبدوونه
خشية اتهام الناس لهم بالجمود والضعف ، هو يمثل في أقوال دون
أفعال وعبارات مؤثرة تبكي القارئ والسامع ولا يمكنها لا تجرح
القلوب ولا تقلل قيمة ما في الجيوب ، ذلك لأن الأخلاق الحسنة
والتربية السكرية التي تنجم عنها الفضيلة الحقيقية قد توارت عن
أعينهم آياتها واختفت عن أبصارهم معالمها ، ولم يبق لهم منها إلا الاسم
الذي تلوكه ألسنتهم ولا تنفعل به جوارحهم .

وانك لتخدع أحيانا بايدي في قول البعض لك إن فلانا يحسن
عليك ويتوق إليك ، ولا يمكن لعمرى إذا لم يكن لهذا الخنو أو
الشوق من مظهر يتجدد على توالي الأيام في الشدة والرخاء ، فما
أكذب هذا الادعاء ، وباطل يا أخى أن يدعى مخلوق ما أنه يضم
بين جنبيه عطفاً عليك في شدتك في حين أنك لا تجده أمامك أو
بجانبك في وقت هذه الشدة ، والله إنه لعطف لا يتعدى اللفظ
فحسب ، بل لا أثر له ولا وجود ، وهل يكون أكبر من هذا
البرهان أنك تناديه فلا يسمع ندامك ولا يجيب دعوتك ، وإنه

ليدهشك مثلاً أن يكون في حضورك بين يديه فياضاً من الخوف والعطف الكلامي ، حتى إذا غادر مجلسه أو اعترضت مصلحة لك مصلحة له ، كان لك من الصخر ما يمكنك إلاته .. أما هو فلا .. لهذا وجب على الناس أن يودعوا أمثال هؤلاء العاقين في صداقتهم وداعاً أبدياً لكذب حنوهم وباطل عطفهم ، وطوبى للآبرار الذين يسمون للبصائب وتشرح صدورهم للنوائب ، لا يعتمدون إلا على أنفسهم وما هبهم الله من الإيمان والخلق الحسن والعقل الناضج !

واستمرت رقية في ذكر هذه العظات مدة طويلة كان فيها خليل متلذذا بما يسمعه من ذات القلب الفياض بالطهر ، وما زال كذلك حتى قالت له : قل لي يا سيدي من ذا الذي يسأل عن تربية ثلاث بنات ومستقبلهن إذا كان أقرب الناس إليهن ، أبعد الناس بقلبه عنهن ! لهذا نعيش في ألم وشقاء محتملات كل هذا بعزم حتى يدركنا الموت أو يرحمنا الله أرحم الراحمين !

وما كادت تنتهي رقية من حكمها حتى بادرها خليل بإعلانها استعدادها للقيام على أختيها وعليها ، إذا قبلت أن تزوج منه منعاً

لكل شبهة يرميها بها الناس !

فأطرقت عند ذلك رقية تفكر مليا ثم قبلت ، بشرط
أن يكون طالب زواجها موجهها إلى أخيها درويش ، وأن يقبل
قبولا أكيدا أن تعيش أختها معها !

الفصل الرابع

سر عائلة حسن بك

إن كان للفقراء أنواع من الشقاء ، فالأغنياء مثل هذه
الأنواع ، وقد تزول تعاسة الفقراء ، أما الأغنياء فتبقى عليهم
آلامهم ويقطعون أعمارهم في تنس العيش رغم ما يكون في
خزائنها من مال وفير أو في بيوتهم من كنز ثمين
ومع هذا فالناس يحسدون الأغنياء كلها وقعت عليهم
أبصارهم في غدوهم ورواحهم . ولو أن هؤلاء الحاسدين قد منحوا
كل ما يملك الأغنياء من مظاهر الثراء ، وسلبوا ما هم عليه من
راحة البال في كثير من أوقاتهم ، لتأقت نفوسهم إلى ما يكون
عليه حال الفقراء وحنّت قلوبهم إلى ما يملك المساكين والتعساء !

يبد أن الناس طالما يختلون بالمظاهر ولا يكافون أنفسهم
الاستقصاء إلى ما وراءها ، فإن رأوا وجهاً باشاً يحكمون
في الحال بسعادة صاحبه ، والحقيقة أنه يهش ويدش في وجوه
البشر جرياً وراء سقمهم في الحياة !

حسن بك رجل ناهز الخامة والستين ، قضى عهداً
طويلاً يتقلب في مناصب الحكومة الرئيسية ، وله ثروة
طائلة جمع بعضها بكده وجدده ورجع إليه البعض
الآخر عن أبيه ، وكذلك كانت زوجته فيمة ابنة خالته
اليتيمة الأبوين ذات ثراء ونعمة ، بيد أنهما عاشا طويلاً فلم
يرزقا بمولود يتمتعان به !

وما كان أشد آلام حسن بك عند ما يرى أطفال جيرانه
يلعبون في فناء الشارع أمام بيوت آبائهم حيث يشهد
العابهم وهو جالس على كرسي أمام عتبة باب داره ! إنه
ليشهدهم من بنين وبنات ، يرقصون ويقذفون أو يصرخون
ويلعنون . تساعدهم على ذلك أغصانهم الخضراء الرطبة

الجذابة التي تتحرك عند رؤيته لها كل عواطف أساه وحزنه !
واتفق لحسن بك أن اصطحب يوماً صديقاً له وكان طبيباً
إلى نزهة في إحدى الحدائق لرويح النفس ، فاختطف
بصره رتع الأطفال ولعبهم ، شجوهم وتغريدهم ، وما لبث
أن أطرق برأسه تحمراً ثم سقطت دمعته دفع بها إلى
مآقيه ذلك الرجل الملتهب بين جنبيه ثم قال لصديقه : اخرج
بنا يا عزيزي الدكتور عن هذه الجهة !

الطبيب ظفيل : لماذا ؟ إني كلما رأيت طفلاً أو طفلة
تصورت ولدى المحبوبين ، وسرعان ما أشعر بفرح تهتز له
كل أحشائي !

حسن بك : وإني على النقيض من ذلك يا عزيزي !
الطبيب ظفيل : ولم هذا ؟ أفقدت طفلاً من أطفالك
أم جميعهم ؟

حسن بك : لم أفقد أحداً لأنني لم أرزق بأحد ، وقد بلغت
من الكبر عتياً !

الطبيب ظفيل : أذكر أني عالجت أكبر منك مناً ، ونجحت

والحمد لله في شفاء عقره .

حسن بك : لقد عالجتنا نفسينا أنا وزوجي بكثير من
الوصفات التي وصفها لنا الناس ، فلم نترك وليا إلا نذرنا له ،
وكم أرسلنا للقوديات قطما من لباسنا قد غمرها عرق جسدينا
لتكشف لنا الجن والحدام عن الداء والدواء ، وكم ارتدنا
القبور المهجورة ودفنا فيها الكثير من الطيور السوداء المنحورة
وكم ارتضعنا من ألوان الحمر عند اعتلائنا لظهور البعير، وكان
كل ما وصف لنا وفطناه عن طب خاطر غير ناجع لعلتنا
الطبيب ظيفل : ها اها ، وإنه ليؤلمني أن تكون متعلما ثم
تماشي هؤلاء المشعوذين فيما يقولون ويعملون اوالآن وقد مضى
ما مضى ، وإنك لا تزال على حالك ، فلتجرب علم الأطباء ، ومتى
رجعنا إلى المنزل فسأفحصك إن شاء الله فحفا جيدا وأرجو الله
أن يساعدنني على اكتشاف عاتك أو علة زوجك

• • •

وكانت معالجة الدكتور ظيفل خير السبل لشفاء عقر حسن بك
هو وزوجه ، وما هي إلا أشهر قليلة حتى حملت السيدة فهيمة ثم

وضمت حمدي .

وفيا كان يوم ما حسن بك - بعد بلوغ حمدي الستين من عمره -
جالساً مع صديق له من مأموري الشرطة يتحادثان ، وإذا
بجندى الشرطة يحمل لقيطة عثر بها في ناحية من الشارع ، فلما
قص حكاية عشوره عليها ، مدحسناً بك يديه إلى الجندى فتناول
طفلة لطيفة سرعان ما احتلت قلبه ، فلم يتمالك نفسه من التعبير
عن ذلك لصديقه ، ثم توسل إليه أن يساعد في التصريح له
بالقيام عليها كأب حنون ، ولقد سر المأمور ذلك ، وأسمها
حكمة ، وما هي إلا بضع الساعة حتى كانت اللقيطة بين يدي
حسن بك في عربة تخرق الشوارع المؤدية إلى بيته .

وكان الزوجان قد بلغا من العمر عتياً ، فلم يرزقا غير حمدي
بيد أن رحمة الله الواسعة قد أرسلت إليهما ابنة جديدة راعيا الله
في تربيتها ، بل ولم يشعرا بها بأنهما غريبان عنها ، فكبرت حكمة
وهي معتقدة أن أويها هما اللذان يمولانها ويربيانها ، وكان
حب الزوجين قد مهد السبيل لحمدي فأنزلهما من قلبه أيضاً منزلة
الشيقة ، فكان يقف بجانب درجة - لم العربية الطواف المديسية

لاستقبال حكمة التي اعتاد أن يحمل لها جعبة كتبها ، ثم يقبض على يدها بيده ويصعد بها إلى أمه من المأفرح ، تلك الأم التي كانت كلما رأتها فرحين ، ضمتهما إلى صدرها ، ثم سجدت لله شكراً على ما أولاها من نعيم بوجودهما !

بيد أن الهناء الدنيوي كثيراً ما تعتوره صدمات نوقفه لفترة من الزمن أو تبتريه بترأ ، فبينما تكون النفوس طرية بما يتجدد لها من معالم السرور بنعم الله ، إذ تصاب بما يحول مجرى أفراسها إلى وديان الحزن ، فيتبدل ذلك الهناء بنوع من أنواع الشقاء ، وبالعكس قد تعتور أيام التعامه زوابع تقتلص جذورها ، فلا يبقى أثر لحزن ، وعلى هذه السنة الحكيمة قد افتقدت السيدة فهمة زوجها حسن بك بانتقاله فجأة إلى عالم البقاء حيث يلقى وجه ربه ذي الجلال والإكرام

* * *

وكانت السيدة فهمة قد اتخذت العادة التي جرت عليها المصريات في الذهاب إلى المقابر يحملن ما خف أو ثقل حمله من الخبز أو العاكة والكعك ، وكانت إذا أخذت مجلسها بجانب

قبر ميتها ، توالت في المحجى عليها فرق الأطفال الضالين ، وكذلك جماعات من يطلقون على أنفسهم الفقهاء وما هم في الحقيقة إلا السفهاء ، يستجدونها العطاء المعروف بالرحمة ، وفيما كانت السيدة فهيمة جالسة مع صديقاتها توزع هذه الصدقات التي جاءت بها ، وإذا برجل رث الثياب حافي القدمين ، قد اسنأصل سوء الحظ محاسن وجهه ، وقف أمام قبر زوجها حسن بك بغتة وأخذت العبرات تنهل من عينيه ، ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يتلو العاتحة .

وبينما كان هذا الرجل يهيم بالرواح ، إذ سمع صوت سيدة تناديه ، فأنجحه إلى يمينه فوجد السيدة فهيمة تقول وهي مشيرة إليه : أتعرف قبر من هذا ياسيدى ؟

الرجل : بلى ! تغمده الله برحمته . . إنه المرحوم حسن بك ، وكان لى به والد آخر غير والدى الحقيقى ، وكانت زوجته بارة بى ! فلما سمعت السيدة فهيمة . . أنه ذلك شعرت بحركة غير مألوفة قد اعتورتها ، ثم حدثت فى الرجل تحديقاً كبيراً وأشكل عليها

أمره ثم قالت وهي مطرقة : من أنت أيها الرجل ومن عائلتك ؟

الرجل : ١- إذا تـأـلـن يا سيدتى ؟ اتركينى لحالى فحسبك ما تربيتنى عليه من شقاء لا تؤلمينى بالذكرى فقد جردت كل مشاعرى منها .. (ثم هم بالذهاب)

فهيمة : لا تذهب بالله عليك ، لقد أضعف الحزن ذاكرتى وتعال .. اقترب منى ألسـت أنت خليل ابن السيدة فاطمة ؟

وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى وقع خليل على اقدامها باكياً ، فمرت السيدة فهيمة بيدها على رأسه وقد لف عليها لفافة ، ثم أخذت تعزيه بكلمات رفيقة ، ثم انتحلت به جانباً فأخذ يتحدثها فيما كان من أمره مع والديه ، ثم حكى لها ما كان من أمر معرفته وزواجه برقية التى عاش معها أكثر من عامين (كان فى خلاهما يأخذ قهراً أجرها وأختيها فى الخياطة) ، وكان كلما ذكر إسم رقية سبحت مآقيه بالعبارات ، فاستفسرت السيدة فهيمة عنها

فقال بصوت يتهدج أبى : إنما ماتت يا سيدتى بالحمى ، وقد ماتت أختها بنفس هذا المرض قبل موتها بيضعة أيام .. وإبنى

يا خالة كلما طافت بي ذكر أمي أو أرجعت البصر كرة إلى حياتي
المملوءة بالشقاء، وجدت في حضوري لزيارة الموتي تعزية لي
وسلوى ! (وهذا اعتورت خليل نوبة بكاء حار)

فهيمة: لعل ما تركته لك من خلف قد افترسه الموت ؟ مسكين
أنت يا خليل !

خليل : (بصوت متهدج ودمع دافق) ليت من تركته لي
وديدة الوالدة للوالد قد مات ... إذن لكان هناك حد لآلامي ...
إن الموت قاس ، ولكنه حد يقف عنده الآسى الذى إذا أدرك
غايته أذابه كالأعوام ولا ترجعه إلا الذكريات القصيرة
الآوقات ! لقد فقدت إبتها الوحيدة بعد أربعة أيام من وفاتها
ولم أعر عليها ... ولكن ... لا ... وأستغفر الله ... بل انتزع المساد
ماني من حنان ، فألقيت بفائدة كبدى إلى ناحية الطريق ثم وجهت
نظر رجل البوليس إليها فجاء وذهب بها إلى حيث لا أعرف
طامقراً !

فهيمة : وبحك يا قاسى القلب . . كيف تفعل بولدك
ملا تفعله الحيوانات العجم ؟

خليل : قد كان ياسيدتي كل ذلك .. وأنا الآن حليف
أسقام وأوجاع، وكلما رجعت إلى نفسي فحاسبتها ، ولا يسـمك
ياسيدتي أن تنكري على ذلك لما تعلينه من حالي ، لأن لكل نفس
ثورة مهما تسفلت ، فإذا اشتعل بركان هذه الثورة بمؤثر غير عادي
وكدحت النفس بما فطرت عليه من حالي الطاهر والاباء ، تولدت
الذكريات القاسيات في رأسي فاستعرضتها واحدة بعد واحدة ،
وأنا بين عذاب ووخز الضمير ! أواه ياخالة وكأني الآن أرى
رقية البائسة قادمة إلى علي رأس جماعة كبيرة العدد مرفعة العدد ..
ولكن .. آه .. إنها الآن في حلة بيضاء ناصعة ، يتفجر النور
من بين ثناياها وينبعث من محياها !

انظري .. انظري .. ياخالة .. هاهي تقترب منا شيئا فشيئا ..
ولكن ماذا أرى يمينها ؟ قضيب من نار ملتهب ؟ ! ويح نفسي !
لقد ظلمتها بالأسس وهي ضميعة الحول وكنت أسطو على أجر
خياطتها ، فجاءت اليوم بقوتها النارية لتقتص قصاصا عادلا .. أواه ..
ما هؤلاء عند السلحين يتبعون خطواتها .. أواه .. ما أرهف
نفسهم وأذكروا جوههم ؟ ! القصاص .. القصاص .. تلك هي

كلهاتهم التي أسعدها !

فهيمة : إنهم لجند الضمير يا خليل .. يتمثلون لك كما كنت
تتمثل لأولئك الذين قسا قلبك عليهم فأخذت سهام لهُوك
في صدور عفتهم وطهارتهم وإبائهم . بل وقطعت بأيديك أوصال
قلوبهم .. أنرى جندا ؟ ! إنهم لأشباح الذين أذيتهم وأشقيتهم في
حياتهم .. تراهم عند رجوع نفسك الشقية إلى حظيرة الفطرة
حيث يكون الطاهر سياجها الغربى .. أتألم اليوم ؟ ! نعم لشد
ما يكون ذلك الألم ! ولكن هذه ثورة سطحية تنعكس فيها
آية خلقك ونفسك التي نشأت في السوء وربيت مع الفجور ..
أتألم يا خليل ؟ تألم ! فان هذا الطوفان النفسى لا يلبث إلا قليلا
حتى يزول ثم تعود نفسك إلى حالها !

• • •

وكان ما قاله هذه السيدة من الطوفان النفسى الذى استور
خليل هو الحق الذى لا ريب فيه ، فألم لم تكذب تنهى من كلماتها
إليه حتى أخذ خليل يجمع شتات حواسه التى كان قد افترقها
في ثورته الروحية على مدى نقرات موسيقى حزينة

فنهض خليل بغتة بعد أن أنصت قليلاً ثم هم بالرحيل وكأنه
استشعر بغزارة مداومه المهمة فأخذ يحففها برقعة بين يديه ،
وفيما كان كذلك وإذا بالسيدة فهيمة وقد وقفت ثم اقتربت منه
كثيراً ووضعت شيئاً من النقود في يده صدقة على زوجها ،
فتقبلها خليل شاكراً مترحماً ، بيد أن فهيمة قد طلبت إليه أن
يزورها في بيتها الذي أخبرته عن مقره فوعدها بذلك

وإنها لأيام قليلة حتى كان خليل يطرق باب السيدة
فهيمة من يوم وآخر ، وإذا بها نحنو عليه في كل مرة بالعطاء
من مال ولباس ، حتى اعتادت حكمة أن تستبق نصيبها كله أو
جمله من الفاكهة أو الحلوى أو النقود ، فإذا حضر خليل إلى المنزل ،
أعطته كل ذلك عن طيب خاطر .

وانفق يوماً أن السيدة فهيمة شاهدت حكمة وهي عارية
الجد في داخل الحمام ثم وقع نظرها على ساقها الأيمن ، فلاحظت
وشماً مدموغاً عليه وهو (ح . خ) وفيما هي تتطلع إليه إذ
خطرت لها حكاية خليل التي قصها عليها يوم كانت عند قبر
زوجها ، وصرعان ما تسربت إلى رأس السيدة فهيمة فمكرة

غريبة وهي أنه من المحتمل أن تكون حكمة هي تلك اللقطة ،
وفيما كانت السيدة فهيمة على حالها هذا من الاضطراب
الفكري ، وإذا بالسبب يطارقه خليل ، فاذنت له
بأفكارها ، وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت على قرب منه تحادثه
فهيمة : ذكرت لي يا خليل ما كان من أمر زواجك بامرأة
غير ابنة عمك ثم ارتزاقك منها بطفلة ألقيت بها إلى الأرض
ليحملها رجل البوليس كلقطة ، فهلا تعرف شيئاً فعلته في هذه
الطفلة المسكينة أمما ؟

خليل : (بعد أن أطرق قابلاً يفكر) : إن أذكر شيئاً هاماً
جداً ، نعم أذكره ، وذلك أنه لما بلغت ابنتي الثلاثة أشهر من عمرها
سقطت من بين يدي إحدى خالاتها لمسافة قريبة ، فحصل لها
بعض رضوض في ساقها الأيمن (وما كاد خليل ينطق بهذه
الكلمة حتى تملكك السيدة فهيمة هزة غريبة جعلتها تمحلق كثيراً
في خليل) فحضرت إلى مسكننا عجربة واقترحت علينا أن تدق
على نخذ الطفلة أي تدمغه بوشم وقد كتبنا الحرفين الأولين من
اسمها في موضع الرض بالساق الأيمن (فزادت حلقة فهيمة

فهيمة : وماذا كان اسمها ؟ لملك أسميتها اسماً لطيفاً ؟
(متعمدة الابتسام)

خليل : كانت سمية ليكريمتك العزيزة حكمة !
فهيمة : اسمها حكمة ؟ أتقول إن اسمها حكمة ؟ يا لله (ثم تمتمت
بضغ كدمات لم يسمعها خليل) — وكانت قد أزفت ساعة رحيل
خليل إلى عمله ، فاستأذنها في الرحيل ثم تساول يدها كعادته
فقبلها احراماً وخج

وكانت السيدة فهيمة قد قررت أن تجمع بين الابنة وأبيها،
ولكن مع الحذر الشديد والمراقبة التامة ، وبغير أن يعلم أحد
منهما أو أى مخلوق بحقيقة أمرهما ، وكان باب المنزل محمدين قد
أهمل كثيراً في أعماله لالتهامه بهجالة إخوانه ، فقررت أن
تستبدله بخليل الذي كان قد أصبح في أسوأ حال ، يتعيش من
حمل الضائع ثم انزلها إلى عربة الشحن وأظهرت رغبتها هذه
له وأطمعته بزيادة جماله الشهري ، فقابل رغبتها بالحمد بيد أن
السيدة فهيمة شترطت عليه أن يحسن سلوكه ، ولكنه كثيراً

ما كان يتغيب عن البيت ويذهب إلى الحانات لمعاقرة الخمر ،
فاضطرت السيدة فهيمة أن تتخلى عنه وأن تكتفى بالاحسان
إليه كلما عاد إليها تقتله الحاجة ، بيد أن تعاسة حاله قد أورثته
أمراضاً لازمتة طويلاً من الزمن ، لاقى في خلالها أشد الآلام

فلما استفحل مرض خليل ، وشعر بدنو ساعة الموت في
تلك الغرفة التي يسكنها ، ر - ف على يديه إلى زاوية من الغرفة
كان قد وضع فيها صندوقاً صغيراً جمع فيه خرقاً بالية وقطعاً من
الورق ، وكان للصندوق درج صغير وضع في أحد أجنابه قلاً
ومحبرة ، ثم اتكأ على جدار هذا الصندوق وأملى عليه وكتب في
تلك الرقعة كثيراً ، فلما انتهى من الكتابة التي كانت تمطرها عيناه
وابلا من الزفرات الملتمة ، واتفق أن دخلت الحاجة زينب
صاحبة المنزل التي كانت تؤدي له كل ما يلزمه من خدمات دخلت
هذه المرأة الشريفة إلى غرفته ، فأدهشها قعوده واشتغاله
بالكتابة ، وجزعت جزعاً عظيماً لبكائه فقالت له : ماذا دهاك
يا خليل .. أتشكو ألماً ؟ ...

خليل : أشعر بحالة خاصة ولا أظن إلا أنها حالة الاحتضار
للموت . . . ولهذا فكرت ألا أودع هذا العالم قبل أن أرسل
بكلمة التمس فيها عفو والدتي وزوجتي وولدي . . . وهذا أيتها
الحالة لو تختمين جهادك الانساني معي بمكرمة تسليم هذه الوصية
في الحال إلى أهلي في المنزل رقم ١٠٠ بشارع المدلية

الحاجة زينب : ستسكون وصيتك بين أيدي أهلك في أقل
من ساعة إن شاء الله لأنني سأرسل بها ابنتي عزيزة حالا ١

وقبل أن تخرج من الغرفة ، مد إليها يديه طلبا في المساعدة
على الرجوع إلى فراشه ، وما كاد بمساعدتها يتمدد على الفراش
حتى خرجت إلى ابنتها عزيزة بيدها صحيفة مطوية فعرفت ما بيت
خليل ، وكلفتها الاسراع في الذهاب إليه وتسليم هذه الورقة إلى
صابر شخصياً أو جدته .

فخرجت عزيزة مسرعة حاملة تلك الرسالة ، أما الحاجة
زينب فقد عادت إلى غرفة خليل ، ولما كنها ما كادت تجابه خلايلا
بوجهها وهو منسطح على ظهره حتى أدركت أنه في حالة النزاع
لخروج الروح ، وقد افتقد الكثير من سمعه ونطقه ، واعتورت

لسانه لعشمة ، ثم تبع ذلك شهبات حادة كانت تغتن في كل
واحدة منها أنه يودع بها آخر لحظة في حياته الدنيا !
وكانت حدقتا عينيه الدعجاوين قد رفعتا في أعلى المقلتين ،
ولم يعد يظهر من العينين إلا بياضهما الجاف ، ووقفت الجفون
عن الحراك ، فلم يبد منها علو ولا انخفاض ، ودالت دولة النظر
فلم يبق إلا خيال كحلم النائم يسبح في دياجير الماضي القديم
والحديث بين الألم والعذاب ، فاذا أراد أن يذرف دمعة الندم
والاستغفار أبت عليه مقلتاها !

وكانت وجنتاه قد كستهما صفرة زهرة الشمس غير أنهما
لا يزدهيان كما تكون عليه تلك الزهرة اليازمة من انتعاش إذا
بللها الماء ، وإنهما لربوتان قد أصابهما القحط ليس فيهما من نضارة
الأزهار ولا لطيف جريان الأنهار ، قد نبت فيهما العشب ،
فألبث أن جفت أعواده من الظلم لحل معين الحياة ، فأضحى
قفراً موحشاً لا تجد في النطلع إليه نزهة للنفس ولا راحة للقلب !
أما فمه فقد ارتخت شفاته بعد أن فرت حمريهما واحترق
أديمهما ، فلم تعد تشهد فيهما إلا نوعاً من الخضاب الأسود وقد

أَمْزَجَ بِشَحْمِهِمَا ، وَكَانَتْ نَدِ بَانَتْ نَحْتِ هَذَا السَّوَادِ أَضْرَاسِ
تَخْرُ فِيهَا السُّوسُ ، وَكَذَلِكَ أَضْعَ أَسْنَانِ لَبِ بِمَذَوْرَهَا خَبِثَ
مَا فِي الْمَخْدَرَاتِ السَّامَةِ فَأَصْبَحَتْ تَتَحَرَّكُ بِتَحْرِيكِ الْفَسَاكِينِ الَّذِينَ
أَوْقَفْتُهُمَا وَهَيْشَةَ الْمَوْتِ !

وَمَرَّتْ سَاعَةٌ وَالْحَاجَةُ زَيْنَبَ جَالِسَةً بِجَانِبِ خَابِلٍ وَهُوَ
يَحْتَصِرُ لِلْمَوْتِ ، وَكَانَتْ كُلُّ مَاتَةٍ تَطْبَعُ عَلَيْهِ هُوَ تَقْطِيرُ قَطْرَاتِ الْمَاءِ
فِي فَمِهِ الَّذِي كَثِيرًا مَا كَانَتْ تَهْطُكُ أَسْنَانُهُ ، فَإِذَا نَزَلَتْ قَطْرَاتُ
الْمِيَاهِ فَوْقَهَا فَتَحَ فَسَكِيهِ قَابِلًا وَاسْتَحَابَ هَذِهِ الْقَطْرَاتِ بِطَهْ عَظِيمٍ
بِحَيْثُ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ حَرَكَةً عَلَى فَمِهِ .

وَبَيْنَمَا كَانَتْ زَيْنَبُ تَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ آخِرَ شَهْفَةِ الْخَبَلِ
يَحْتَجِبُ بَعْدَهَا هَذَا الْمَرَامُفِيُّ وَهُوَ الرُّوحُ ، وَإِذَا بِهِ وَفَدَ عَالَمَ
ثَغْرِهِ الْمَسْكُوتِ ابْتِسَامَةً شَدِيدَةً . وَفِيهَا كَانَتْ تَرْقُبُ بِعَجَبٍ مَا يَفْعَلُهُ
هَذَا الْمُحْتَصِرُ ، وَإِذَا بِعَزِيزَةٍ ابْتَدَأَتْ قَدْ وَقَفَتْ عَلَى رَأْسِهَا تَذْشُهُ بِمَعْنَى
صَابِرٍ وَوَالِدَتِهِ وَجَدْنَهُ وَمَعَهُمْ حَمِيٌّ ابْنُ الْجَارَةِ الْكَرِيمَةِ السَّيِّدَةِ
فَهَيْمَةَ .

الفصل الخامس

العواطف

لشد ما يذكر الناس أوجاعهم ، ولو بحثت بين صفحات
قلوبهم لشاهدت لسعات هذه النيران المتقدة المستعرة قد أعيت
جوانحهم وأسقت أقدتهم وقرحت قلوبهم ، والناس في نكرانهم
لحالهم يخدعون في الحقيقة أنفسهم أكثر من خدعهم لظريهم
لأنهم لا يرمون بعملهم هذا إلا مجرد خلق سوى وتسلية أو
تعزية لهم على احتمال المصائب التي نزلت ونزل بهم . — هذه هي
حقيقة أسرة الشيخ محمد منذ قضى الله بساعة الفصل بينها وبين
خليل ! يا أن فاطمة وصديقة وصابرا لا يتسم لهم ثغر إلا عن
مضض ورغم أنف ، لأنهم بينما كانوا يشمرون في اجتماعهم بشيء
من السرور الذي يحليه صفاء الأخلاق وطهر النفوس فتبتسم
ثغورهم على غير رضى منهم ، نرى أنهم سرعان ما يحسون بشيء
أشبه بتأنيب الضمير على خيانتهم لتلك العاطفة الشريفة التي لا تلبث
أن تجيش في قلوبهم وبين جوانحهم عاطفة الاستمساك بالحزان

الوالدى والميل إلى الزوج والرغبة في الاستمتاع بقرب الوالدين
مهما قست القلوب وتحجرت الأفئدة !

وكان صابر قد نجح في إجازة الحقوق ، فابتدأت الجدة
فاطمة تفكر ملياً في أمر زواجه الذي كان جل ما تطمح إليه
نفس صفية ، ولكن من هي تلك العروس السكريمة الدوحة
العريقة في الحسب الرفيعة العباد في الأخلاق التي تتفق مع صابر
في كريم شيمه ؟

أخذت السيدتان صفية وفاطمة في ارتياد المنازل التي تعلبان
بوجود السكواعب فيما لتخطبان من بينهن واحدة لصابر ، وكان
من البيوت التي طارقتا أبوابها منزل المرحوم حسن بك لتشهدا
حكمة التي أشار عليهما صابر بالذهاب لرؤيتهما ، ولا تسئل أيهما
القارىء الكريم عن مبلغ ما لاقتنهما به السيدة فهيمة من الحفاوة
ولا عن مبلغ سرور السيدتين صفية وفاطمة باجتماعهما بجارتيهما
العزيزة ثم بتلك الدرة اليتيمة التي دخلت عليهما في حلة أرجوانيه
يعلوها وجه هو البدر الذي كمل نوره ، ذات قوام معتدل رشيق
قامتلكت بسحر جمالها قلبيهما .

وكانت السيدة فهيمة لم تحظ بالاجتماع بجارتها منذ انتقلت من جوارهما، وعندما علت برغبة الخاطبتين، اضطربت جوارنهما وأفكارهما، ثم وقعت في حيرة كبرى، على أنها وعدتهما على أن يكون ذلك بعد أمد قريب نظراً لظروف خاصة بها. وفيما كانت السيدتان تتكلمان في أمر الزواج، كان حمدي وصابر الصديقان الكبيران المخاضان، قد وصلا إلى المنزل ثم دخلا إلى غرفة الاستقبال في الدور الأول من البيت، وبغير علم بما يجري في الدور الثاني ولا معرفة بوجود الجدة وصفية في المنزل حيث كانتا لم تذكر إصابر عزمهما على الذهاب في هذا اليوم.

ولولا تعود صابر على مرافقة حمدي إلى منزله عقب خروجهما من أعمالهما التي كانت مواطنها قريبة لبعضها بعضا، لما وقع هذا الاتفاق الغريب.

وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، وإذا بالخادم يطرق باب الغرفة، فلما أذن له دخل عليهما وأخذ في الحديث قائلاً:
 امرأة واقفه على الباب تطلب صابر بك
 صابر: أتطلبني أنا؟ أنا؟ أنا؟

الخادم : نعم ياسيدى ويظهر أنها تحمل رسالة هامة لم نشأ أن تسلمنى إياها خشية إطلاع أحد غيرك عليها !

الدكتور حمدى : قل لهذه المرأة أن تدخل .. وسأخلى السكالمحل يا صابر حتى إذا انتهيت من معرفة أمرها دعوتنى الأستاذ صابر : لا تذهب بالله عليك .. فليس لى سر ، ولم أعود قط والحمد لله مكاتبة ذوات الأمرار .

وكان الخادم قد خرج فى هذه الأثناء ، وبعد هتية ظهرت أمامها عزيزة تحمل بيدها صحيفة مطوية .

صابر : من تريدين ياسيدتى . أنا صابر المحامى فهل تحملين هذه الرسالة إلى ؟

عزيزة : نعم ، وقد ذهبت إلى بيتك ياسيدى فلم أجد هناك غير الخدم الذين أخبرونى باسمك ووصفوا لى محلة عملك ومكانها وقد طلبوا إلى أن أودعهم الرسالة فلم أشأ عملاً بوصية أمى ، وقصدت مكتب أعمالك فأتى بى الخادم إلى هنا ، ومن غريب الاتفاق ياسيدى أن أعلم عند وصولى الآن أن والدتك وجدتك قد حضرتا قبل وصولك ، كما أخبرنى خادم البيت

وكان صابر قد تناول من يدها الرسالة وكشفها وأخذ يقرأها سرّاً ، وما كاد يصل إلى نصفها حتى توجه إلى صديقه حمدي ونظر إليه بعينين سابحتين في الدمع قائلاً : تقول الرسالة إن والدتي وجدتي في حضرة السيدة والدتك ، فإذا كان ما تقوله صدقاً ، فأمل أن تخبرهما أنني أريد أن أراها الآن لأمر هام جداً حمدي : سمعاً وطاعة . وأرجو أن يكون ذلك خيراً !

قال ذلك الدكتور حمدي بينما كانت خطواته تنهب الأرض نهياً والجا داخل البيت ، أما صابر فقد عاد إلى قراءة الكتاب وعبراته تنهمل ، وقد نسي أن يشير إلى الأنسة عزيزة بالجلوس لأنه ذهل بما وجدته فيها من العبرات ، حتى اضطرت عزيزة أن تجلس على أحد المقاعد مستأذنة منه بصوتها المزهج المضطرب لما بذلته من جهد عظيم ، فلما استشعر بذلك أسف وأراد أن يعتذر لها ولكن الغم والحزن قد أبكما فه ومزقا قلبه وأسكبا دمه !

وما هي إلا بضع دقائق مرت عاياه وهو على أحر من الجمر ، وإذا بالسيدتين فاطمة وصفية أمام ولدهما صابر يسمعان خلاصة

ما في الخطاب ، وكانت الأنة حكمة في جلسة بين أنسات تعودن زيارتها في كل أسبوع للسمر ، فكان كل ما علمته أن خليلا كان من عائلة كريمة ، وجاء اليوم هذه الرسالة يتطلب عطف أهله ، وقد ساءها أن تعلم خبر احتصاره للموت ، فأخذت وحدات اللؤلؤ المشور تتساقط من مآقيها ، ثم غمرها العرق فكانت مسام جسمها وكأنها ينابيع ماء الورد تقطر فتجففها يداها اللطيفتان بتلك الرقعة الحريرية التي اختمرت فيها مداهمها ، فكان لها شذا يستعجب تنسمه وشمه .

وما هي إلا دقائق معدود ، حتى كان الجميع (ما عدا فريمة وحكمه) عند خليل ، وكانت عبرات السيدة فاطمة التي تساقطت على وجهها كالطر ، بمثابة المراد المنعشة التي يستنشقهها الصرعى ، فقد انتعش المحتضر بها وبدأت بعض الحركات تبدو على يديه ووجنتيه وعينه ، أما أصابعه فقد كانت تقبض ثم تفرش ، وكذلك فقد تشربت الوجنتان بقليل من الحمرة أو ظلها الضئيل كما لمت العينان ثم نصبت ، فاذا بالجمع رى خليلا يحدق فيهم

بعينين حادتين ، ثم عرت جسمه قشعريرة ، وكذلك فتح ذراعيه وأطبقها كأنه يعانق عزيزا له كان قد هجره ثم عاد إليه ، وعلا صوته في نزع هذه الألفاظ غير المفهومة أو التمتمة ، فاقترب ولده منه لعله يستطيع فهم شيء منه ، ولكن عبثا حاول ، بيد أنه بينما كان يناجي والده الحديث ، إذ وقع صوت حمدي في أذنه يناديه : علينا أن ننتهز فرصة انتعاشه فننقله إلى البيت

صابر : ولكن بيتنا بعيد جدا ، ونخشى أن يموت معنا في الطريق أو أن يؤثر عليه تعب الانتقال

حمدي (بعد فحص المريض سطحيا) : لا داعي للخوف الآن ، وسننقله إلى بيتنا لقربه ، وقد ذهبت الآن وأخبرت والدتي بالتليفون لترسل بسرعة سيارتنا إلى هنا وستكون السيارة هنا بعد بضع دقائق

فاطمة : نشكرك يا ولدي العزيز

حمدي : لا حاجة إلى الشكر يا والدتي ، فإني أقوم بعمل الواجب على .

وما كادوا ينتهون من حديثهم القصير هذا ، حتى لاحظوا

أن رأس خليل تتحرك إلى الجهة التي يجلس فيها صابر وصفية ،
ثم أخذ يحدق فيهما بعينه السوداء وين وعاد إلى ألفاظه المهمة ،
يبد أنها كانت أكثر وضوحا منها من قبل ، على أن الله سبحانه
وتعالى كان قد حرر لسانه من العقال فأخذ يناشدهم
ويناشدونه !

خليل : أرى أمي ؟ .. يا لله ... وولدي صابر ؟ ثم زوجي
بل ابنة عمي ؟ أرضيتم جميعا ... ما أكرمكم
صفية : لقد جئنا لنفتح قلوبنا إليك يا ابن عمي ، لتزود من
حنانها وعطفها عليك ، فاذكر الآن حاضرك وحسب ؛ فملا
تشعر بسعادة بحضورنا جميعا إليك ؟ لا تيأس ، فقريبا يكون
شفاؤك ، ولن تجد فينا إلا جوانح تضمك كضمها للقلوب . .
تشجع . . فأنت بين أهلك وذويك !

الحاجة زينب : لا بأس عليك اشد حيلك !

خليل : رأيتم كيف يحيي الله الموتى . . لقد أحياني الله
بوجودكم !

وكان قد أتعبه الكلام كثيرا وعرفته ملالة المريض ، فأسبل

عينيه وسكت لحظات طويلة حتى ظن الكل أنهم قد انتهوا منه ،
ولكنه عاد فتحرك ثانية وأشار بيده إلى الحاجة زينب التي خدمته
وإلى الأنسة عزيزة التي سببت الجمع بينه وبين أهله وإلى السيدة
فهيمة وولدها اللذين أحسنا إليه ، قائلا : أيها الناس إن من يرفع
عن البائسين يؤسهم ويعزى المحزونين بالعمل الصالح ، لا يعدم
مكافئا ولا شاكرا . . . وإن لم يجد من الناس فليرقب نعماء الله
الكريم الأكرم التي تنهل عليه في دنياه وآخرته !

وكانت السيارة قد وصلت إلى باب البيت وأعلن الكل بذلك ،
فقاموا سراعا إليها حاملين بين أياديهم خليلا الذي وضع في العربة
وبجانبه الوالدة والزوجة والحاجة زينب وبنتها ، أما صابر وحمدى
فقد ركبا بجوار السائق ، وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت
السيارة أمام بيت المرحوم حسن بك ، فحمل خليل على الأيدي
وأدخل إلى إحدى الغرف ، وهناك تقدمت السيدة فهيمة
والأنسة حكمة إلى خليل فقبضت كل منهما على يد من يديه
الباردين وأخذتا تشجعانه على احتمال الآلام ، وارتأت السيدة

فهيمة أن تفرش له بعض المراتب القطنية فوق أرض إحدى
الغرف بدلا من وضعه على سرير عال ، وذهب حمدي وصابر
لاستحضار بعض الأطباء .

وفيما كانت فهيمة وحكمة جالستين محارلتين انعاش خليل من
تلك الغسوبة التي كانت تعتوره أنا بعد أن ، إذ خطرت لفيهيمة
فكرة كشف السر الذي تعلمه عن حكمة إلى خليل ، إلى أن
أخذ خليل يتلفظ ببعض كلمات ذهبت بقوة عزيمتها إذ سمعته
يقول : رباه ... لقد كنت لي كريما رحيمًا رغم ما كنت عليه في
حياتي من فجور ... ضرعت إليك أولا في شدتي فأجبت جل
دعواتي وجمعت بيني وبين أهلي .. رباه .. إنني لأضرع إليك ثانية
في ساعة احتضاري للموت أن تجمع بيني وبين حكمة كما جمعت
بينني وبين أخيها .. رباه .. إن دعاء المسكروبين والمساكين ينفذ
إلى سمائك العلى .. دعوتك وأنا صريع الجهالة وسوء الخلق ..
فتقبل توبتي وأجب دعوتي .. رباه .. إن باب رحمتك يسع كل
من يضرع إليك وقد تلبد شحم قلبه بأديم الإيمان المتدين والحق
الوطيد ، فافسح لي اللهم بين التائبين الذين قبلت توبتهم مجالا كريما

فأنت التواب الرحيم الرحيم .. رباه .. إني ظلمت وجاهدت
وأفسدت وعتوت ، كفرت بعبادتك وأتيت كل منكر وجئتك
مستغفراً فارحمني .. ولا تخيب رجائي في دنو رحمتك مني ،
ولقد قلت في قرآنك الكريم وقولك الحق اليقين ، والذين عملوا
السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها
لغفور رحيم .

وكان لنقرات صوت خليل المتهدج في ضراعتة إلى الله عز
وجل ، وقع عظيم على مسامع فهيمة ، فاعتزمت أن تواجه خليلًا
بالحقيقة وهو على باب القبر أولاً وبمعزل ثانياً ، فقالت : لقد
أجاب الله ضراعتك يا خليل ، وهاهي ابنتك حكمة بجانبك !

خليل : بجانبني ؟ ! .. رباه .. بجانبني ؟ ..

فهيمة : أقول أكيداً يا خليل ، فابنتك حكمة التي ضرعت إلى
الله أن يجمعك بها ، هي نفس ابنتي حكمة التي على يمينك الآن !
حكمة : ماذا تقولين يا أمي ؟ ! دعينا من هذا !

فهيمة : ثق بما أقوله الآن .. ها هي ابنتك بجانبك !

خليل : رباه .. كيف أفهم ذلك

فهيمة : إنك تفهمه . ن ذلك الوشم المدهوغ على ساق ابنتك
الأيمن :

خليل : أين الوشم ؟ أين هو ؟ أرىنى ؟ ... رباه .. أتجيب
دعاء المحزونين والمكروبين والبائسين ؛ مثل هذه السرعة ..
ما أرحمك وأكرمك !

حكمة : رباه .. ماذا أسمع وأرى !!
وبينما كانت حكمة فى دهشة وقد أذهلها ما سمعت ، تقدمت السيدة
فهيمة إليها ، ثم رفعت يدها عن ساق حكمة وهى جالسة على
يمين خليل وقالت :

انظر أليس هذا هو الوشم الذى قصصت على حكايته ؟
خليل : (محمقا فى الوشم) نعم .. نعم .. بنتاه !

وما كاد يقع نظر خليل على هذا الوشم الذى طبع على ساق
من المرمر المستشرب بقليل من الحبرة الوردية اللطيفة ، حتى
عرته نوبة شديدة حركت جميع أعصابه وردت إليها كل قواها
فاستدار بسرعة غريبة ليواجه ابنته التى ضرع إلى الله أن يجمعه

عليها قبل موته ، وسرعان ما أخذها بين ذراعيه اللذين قد أعيدت
إليهما قوة فجائية ، ومن ثم أخذ يرتشف من ثغرها العذب قبله
فأخرى وأخرى ، ولكن وأسفاه فقد كانت قبلات اللقاء هي
عين قبلات الوداع ، بيد أن ذلك قد سبقه مش للرحمة الإلهية
التي لا تغيب عنا والتي ترمقنا رغم مانحن عليه من سوء الخلق !
انظر كيف يحيب الله دعاء من يدعوه في شدته وضيقة وفي
رخائه ونعيمه ، أليس هذا الإله الرحمن الرحيم جديراً بالتقديس
والعبادة في كل آن ؟ ولكن وأسفاه .. إننا لانعبأ إلا بالحاضر
ولا نذكر الله إلا عند ما نكون سفيذتنا تتخبط في دياجير ظلمة
البحار الموحشة حيث تكثر الزوابع وتتلاطم الأمواج ويتمثل
شبح ملاك الموت في كل طرفان يغمر جوف جاريتنا ! هناك بل
وفي تلك اللحظة فقط نشعر بواجباتنا نحو موجد الوجود ومدبر
الأمور ومصرفها ، كأن لم يكن له علينا عز شأنه حقوق الطاعة
والاعتراف بنعمائه التي لا يمكن حصرها ، والذين يقطعون مأمراً
الله به أن يوصل وينسدون في الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم
سوء الدار ،

وبقيت رأس خليل محمولة على كتف حكمة التي أرادت أن ترفعها بل ترفع رأس والدها بين يديها لتتمتع بالنظر إليه ووضع قبلة على وجه المقمع بصفرة الموت من ثغرها الملتهب بنيران الحنو لوالد جهلته ، فطاش سهمها وخاب رجاؤها ! ولقد سبلت عيناه اللتان لم تمتلئا بعد حبوراً وجدان ضالته ، وقفل في الذي لم يلفظ منه كلمة بعد ليتسرب سحرها الحلال إلى قلب ابنته ، ثم أوقفت دقائق قلبه الذي لم يطل نحره حناناً على وحيدته ، وهكذا فقد سكنت أنفاسه التي طالما تأوها تحسراً وأسفاً على فقدانه لسكرمته !

لقد مات خليل .. لقد مات .. مات الوالد بينما كانت ابنته حكمة بين ذراعيه وقلباهما على اتصال بتيار الحنان الكهربائي ، فما أقسى الموت وأوحشه .. فقد فرق بين الحبيبين بعد جمع شتاتهما !

حكمة : أئي .. أئي .. لقد مات يأماء .. آه ليتني لم أعرفك .. ليتني لم أشهد هذه اللحظة العسة التي قضيت فيها نحبك أيها الوالد البائس !

فهيمة : اسكني يا حكمة ولا تذكرى ما وقع الآن لآى
مخلوق ادعيني أسند هذه الجثة بمفردى وحسبك بكاء الآن ولا
تخزنى ، واذهي إلى السيدة فاطمة واستدعيها حالا إلى هنا
وخرجت الأنسة حكمة من الغرفة ، ويعلم الله ما كانت عليه
من حال ، فقد كانت تارة باكية وأخرى صامتة ، وباهول وقفتهما
أمام السيدات اللاتي كن يشتغلن في إعداد الغرفة لنوم خليل ،
فقد تلغثم لسانها واضطرب قلبها ، ولم تعد تدري كيف تروى
للسيدات الخبر ، بيد أن كثيراً ما يشعر الانسان بالآسى أو بالمصاب
قبل نزوله به ، فلم تنكد تلفظ حكمة كلمة واحدة ودموعها سبابة
للفظها حتى أدركت السيدات الأمر فصرخن وتركن عملهن
مسارعات في الذهاب إلى الغرفة التي تركن فيها خليلاً وهن بين
ولولة وصراخ ، وكان قد عاد جدى وصابر ورفقتهم اثلاثة أطباء
ولسكنهم ما كادوا يدركون باب المنزل حتى فهموا من الصراخ
واجتماع الناس حول البيت ، ما جعلهما يعتذران للأطباء

• • •

وفي اليوم التالى شيعت الجنازة بمشهد حافل بالناس ، وانفض

الجمع فلم يبق إلا القليل منه ، وبينما كان صابر واقفاً مع صديقه حمدي وهو غير متمالك نفسه ، وإذا بالسيدة فريمة تقدمت إليه وهي قابضة يمينها على ذراع السيدة فاطمة وبشمالها على ذراع الأنسة حكمة ، وكانت عيون الجميع محدقة بها لشدة الاندهاش ، لأن السيدة فريمة كانت تصرخ بملء فيها : أيها الناس إن هناك سرأ عجيباً ، والحق أقول لكم لن يكون سر حيث تنفذ إرادة الله فانصتوا إلى . . . أرايتم كيف يسعد الله المحزونين في ساعة كربهم ؟ إنه يسعدكم الآن الجمع بينكم ووحيدكم التي أوصاكم فقيدكم بالأمس بالبحث عنها ، ها هي حكمة أختك يا صابر وحفيدتك أيتها السيدة الحزينة نردها إليكما

صابر : أحقاً تقولين يا سيدتي ؟ يا الله !

فاطمة : رياه . . ماذا أسمع ؟

حمدي : أماء ، هذه أختي وشقيقتي لا تمزحي بالله عليك . .

فلسنا في موقف سرور وابتهاج

حكمة : أماء . . أماء . . ماذا تقولين ؟

وما كانت تنسب سعة السارين حتى قالت : صابر لنفسه

واحتضن أخته واضعاً على وجهها قبلة أحر من اللهب ، وفيما يتناول القبلة الثانية كانت السيدة فاطمة تحتضن الحفيد صابراً وحكمة ، وكأن لوحة الأسي ونشوة الفرح قد سلبتها كل قدرة على الكلام ، فما كنت ترى إلا عيوننا تمطر غزير المطر الملهب من حرارة الفؤاد !

صابر : أخبريني بالله ياسيدي هل أرضعت أختي في حاله طفولتها من ثديك الكريم ؟
فهيمة : لا يا ولدي فقد جاءت أختك إلى بيتنا بعد أن كانت ألبان الرضاعة قد جفت من ثديي
صفية : إذن لا غبار علينا إذا زوجنا وحيدتنا بوحيديك ياسيدي !

صابر : نعم يا أمه وليس هناك من حائل شرعي
فهيمة : إنكم تسعدوننا بذلك بإسادة
حمدي : نعم يا خالة ومتى تم ذلك فلا يكون إن شاء الله فراق بيتنا وبين حكمة

أحد الحاضرين : إذن فلنقرأ الفاتحة (فرغ الكل
أيديهم بتلاوتها)

وغادر الكل بعد ذلك المقابر قاصدين بيت المرحوم
حسن بك وهم بين ألم لمصاب الموت وكذلك بين فرح الالتقاء
فكنت أيها القارئ الكريم تراهم فلا تعرف الواحد منهم
بأكياً لشدة الحزن أم دامعاً لعظم الفرح ، وهكذا تجتمع
الأحزان والأفراح في الإنسان الواحد في الزمن الواحد
ولله في خلقه شؤون

ولم يمض أسبوع واحد على وفاة خليل حتى أقيمت معالم
الأفراح لزفاف العروسين الكريمين حمدي وحكمة

—————

تمت بحمد الله ومعونته وحسن تديره - هذا وجميع
الحقوق محفوظة لورثة الأستاذ المرحوم حامد المليجي : أمير
وأبيرة ورفيعة وشريفة ونبييلة المليجي .

حفظ الحقوق محفوظة على طاعة شارع نيرت ورفيعة